سيّد حسين السّيّد علي الأعرجي

ثقافة النزاهة في نهج البلاغة

دار المحجة البيضاء



ثقافة النزاهة

في نهج البلاغة



ثقافة النزاهة

في نهج البلاغة

سيد حسين السيد علي الأعرجي

دار المحجة البيضاء

عنوان المؤلف
سيد حسين السيد علي الأعرجي
أستراليا: أديلايد

Hussein AL-aaraji
4 Claines AVE
Morphettville
SA- 5043
Mob: 0061402661755
email:al-aaraji@ hotmail.com
Australia- Adelaide

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
ISBN:978-614-426-024-1



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

الإهداء

إلى أصحاب النفوس العالية..

ومن لم تُغرهم البيضاء أو الصفراء، ولم يتجاوزوا على الحقوق، وإنّما حافظوا عليها.

أولئك أهلُ الفضائل، نُزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالّتي نُزّلت في الرخاء، وعظُم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم.

نفوسهم قانعة، وإيمانهم حريز.

إليهم أهدي كتابي

سيد حسين الأعرجيْ

تنويه

لنا كتاب «خمسُ لآلىء من كنوز نهج البلاغة» طُبع سنة ٢٠١٠م، في دار المحجّة البيضاء. ومؤلفي هذا «ثقافة النزاهة في نهج البلاغة»، هو البحث الثاني من سلسلة بحوثي في هذا الكتاب العظيم، مع العزم على الاستمرار في هذا الطريق بالاعتماد على المعونة الإلهيّة في تسهيل حَزَنه، وتذليل صعبه، وتيسير مطالبه.

وكنت قد ادخرت كتابَيْ «خطابات مغترب»، طبع سنة ٢٠٠٦م، في دار العلوم، و«تراتيل روحيّة في محبّة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾»، طُبع سنة ٢٠١٠م، في دار المحجة البيضاء، راجياً أن تكون هذه المؤلفات وما يوفقني لسواها سبحانه في المستقبل ذخيرتي فيما يُنتفعُ به بعد انقطاع العمل، وما ذاك إلّا بهدي منه سبحانه.

المؤلف

فكرة الكتاب

تحقيقاً لما أخذنا على أنفسنا أنْ نبذل الجهد كلّه للاستقصاء والبحث عن كنوز نهج البلاغة، واستخراج ما يمكن استخراجه من الدرر واللآلىء المكنونة فيه، واستحصال الفوائد المرجوّة منه، والوصول قدر المستطاع إلى الغاية التي من أجلها كان نهج البلاغة. التقطنا من بعض زواياه هذا البحث المهم، والذي أولاه أمير المؤمنين عليه السلام أهميّة خاصة، نجدها واضحة من خلال أطروحاته وتوجيهاته التي كان يرسلها لعمّاله أو أصحابه، والتي تضمّنتها رسائله وكتبه وخطبه، سطّر بها أسمى وأعلى مفاهيم النزاهة، واضعاً الخطوط العريضة والأسس القويمة لهذه المفاهيم المهمّة والأساسية والجوهرية في نجاح تجربة الحكم، تحقيقاً للعدالة والحقّ والمساواة في المجتمع، ورفع المظالم، ودفع المفاسد، ونزع المطامع من النفوس.

نحن نعلم أنّ الفساد الإداري، والطمع وحبّ الاستحواذ، وغياب القناعة، من أخطر الأمراض التي تصيب المجتمعات، وتنخر في عمودها الفقري، فتحيلها إلى خراب، وتدفع بها إلى هاوية التمايز، وظهور الفوارق الطبقية، ومنها تبدأ رحلة عذاب الشعوب. وتعمل على بروز الظواهر السلبيّة، والأمراض الاجتماعية، والعلل المهلكة لكيان المجتمعات، من تخلّف وأمراض ومشاكل. والفساد الإداري موجودٌ منذ القدم، حدّته تتفاوت بين حينٍ وآخر، وبين مجتمعٍ وآخر.

وهو أكثر ظهوراً في المجتمعات المتخلّفة والفقيرة ثقافيّاً، ليزيد من هموم تلك المجتمعات، ويضيف إليها معوّقاً، قد يكون من أصعب المعوّقات في طريق التقدّم والنهوض والرفعة والتطوّر والرقي. وإذا كان لقادة أيّ مجتمعٍ ومصلحوه من همومٍ ومسؤوليات في بناء مجتمعاتهم والنهوض بها إلى ما يرفعها لمصاف المجتمعات المتقدّمة، فإنّ همّ الفساد الإداري، وغياب النزاهة، من أكبر وأصعب وأشد تلك الهموم والمسؤوليات أولوية، وأكثرها حضوراً في مسيرة عملهم، وأخطرها أثراً في نتائج جهودهم ـ فقد تكون النزاهة معياراً حقيقيّاً في تقييم نجاح القادة، وحصولهم على احترام شعوبهم واحترام الآخرين، ودليل نجاح تجربة الحكم والإدارة والسياسة، وبالتالي فهو المعيار الفيصل في نجاح الأمم والشاهد على رقي شعوبها.

من هذه المنزلة البالغة الأهميّة لمفهوم النزاهة، اعتمدت الأخذ بهذا البحث، وسبر أغواره وتعقّب منافذه، وتتبع مخارجه، وصولاً للهدف في الأخذ بأسباب النهوض بمجتمعنا، وتثبيت موضع قدمٍ توصل إلى برّ الأمان، والتحفّز والطموح لنيل مراتب الرقيّ والتقدم، والتحرر من قيود الركود والتخلف، والخروج من الزوايا الضيّقة في التفكير، والتي جعلتنا في مصاف الأمم المتخلّفة، فعزلت شعوبنا عن التقدم والحضارة، والازدهار.

لقد وضعت نصب عيني الاهتمام بدراسة الموضوع، ومراجعة أسبابه، مقدماته، آثاره، نتائجه وسبل علاجه.

وقد اعتمدت ما رشح من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة، فيما يخصُّ هذا الموضوع الحسّاس والمهم، والجوهري في مساع بناء الإنسان، وقيام المجتمعات ونهوضها وتأسيسها على أسس سليمة.

أولى سلام الله عليه موضوع النزاهة ومحاربة الفساد أهميّة بالغة سنستشعرها من خلال جواهره التي صاغها على هيئة رسائل أو كتب أودعها عقول الناس ليأخذوا منها دروساً مهمّة، وعلاجات ناجعة، ومناهج مفيدة في مجال مناهضة الفساد ومحاربته، والقضاء على آفته التي أمرضت وأفسدت كل شيء.

وأأكد أني رغم اعتمادي طَرْق سبل البحث من جميع جوانبه ـ وأرجو أنْ أكون موفّقاً في هذا ـ إلّا أنّه كان بأسلوب سلس ومختصر في طرح المواضيع، دون الدخول في تفاصيل تُشغل القارىء عن صلب البحث وغايته، لينحصر التركيز في موضوع النزاهة خصوصاً. وتسهيل الوصول إلى أهداف الكتاب وتحصيل المنافع فيه بإذن الله.

كلمة المؤلف

إنّ أكثر عظماء التأريخ اقترنت أسماؤهم بالنزاهة، وكانت مفاهيم النزاهة مصاحبة لهم أينما حلّوا أو ارتحلوا. وهم في مسيرة حياتهم، وآثار أعمالهم، ومواطن عطائهم، عنوانٌ لهذا المفهوم الخلقي الراقي، وترجمان لتعاليمه، ومنافذ لمعانيه، وبيان لمداركه.

إنّ مواقف الشعوب وآرائهم في عظمائهم مرايا عاكسة لمنازل ومراتب أولئك العظماء، والألسن الناطقة عنهم، والأقلام التي تسجّل تأريخهم، والحقائق التي تثبت رفعتهم، وتخلّد ذكرهم. وما وجدنا شعباً أو أمّةً تحترم قادتها وهم والنزاهة على خلاف، وقلّما نجد أمّة تسنّمت مراتب الرقيّ والتطوّر، ووصلت منازل الرفعة والحضارة من غير نزاهة قادتها، وابتعادهم عن المطامع والفساد والأثَرة والاختلاس. وإن ابتليت الشعوب والأمم بشتّى الابتلاءات فإنّ الفساد الإداري، والرشوة، والاختلاس، وسرقة الحقوق، من أشدّ وأبلغ الابتلاءات وأكثرها ضرراً في المجتمعات. وفي حال استشرائها فإنّها تكون من أخطر المشاكل، وأصعبها حلًّا، وأسوؤها أثراً، وقد تكون آثارها ممتدّة إلى آمادٍ بعيدة، وسلبياتها في مواقع كثيرة تفوق التصوّر.

وما أتعب المصلحون جهد أكثر من الجهد الذي بذلوه من أجل كبح جماح شهوة الفساد واقتلاع جذوره واستئصال شأفته، ونبذ فكره،

وإشاعة ثقافة النزاهة، وترسيخ خلق العفّة والقناعة والرضا ونكران الذات، والعدل وعدم هضم الحقوق.

من هذا المنطلق فإنّ الفكر البشري والذهن الإنساني كان ولا يزال وسيبقى بحاجة كبيرة إلى طرح المفاهيم الموصلة إلى ثقافة النزاهة، وخلق الأجواء المناسبة لتقبّل دعوات نبذ الفساد الإداري، أو الفساد لِكلّ أنواعه، والارتقاء بالذات الآدميّة إلى مراتب العلو والرفعة والطهارة، وإبعادها عن مساوىء الطمع وسوء استخدامه وخطورة آثاره. ورسم الخطوط الثابتة والمتوازنة لدراسة هذه الظاهرة وإحالتها إلى البحث والتحليل الجدّيّ، والاهتمام بجميع أبعادها، والأخذ بنظر الاعتبار، الموضوعية والمصداقية والمهنية والشفافية في مثل هذه الدراسة، للوصول إلى البغية منها، وخلق الشعور النابذ لها، والترغيب في نقيضها من العفة والنزاهة والأمانة والقناعة. فلو ألقينا نظرة فاحصة لتأريخنا، لوجدنا أنّ أكثر أسباب النجاح في إدارة الدول والمجتمعات كان في نزاهة قادة ومصلحي ومسيّسي تلك الدول، وابتعادهم عن الفساد، ونبذه، وشيوع العفّة ومكارم الأخلاق في النفوس، وانعكاساته على سائر المجتمع في رقيّه وصلاحه وعلوّ شأنه.

وما من كتاب منزل أو نبيٍّ مرسل أو وليٍّ عارف، أو صاحب مبدأ إصلاحي إلّا وكان أولى وصاياه، المحافظة على الأمانة وأدائها، وصون العدل، والإنصاف في الحقوق، والنزاهة في الحق العام وفي غيره، وعدم الغبن في التعامل، والالتزام بمكارم الأخلاق.

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: أيهما أفضل العدل أو الجود؟ فقال عليه السلام: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يُخرجها من جهتها. والعدلُ

سائسٌ عام، والجودُ عارضٌ خاص. فالعدل أشرفها وأفضلها[1].

وهذا كلامٌ شريف جليل القدر، فضّل فيه العدل بأمرين:

الأوّل: إنّ العدل يضع الأمور مواضعها، أي أنّه إذا تمّ العدل أصبح المجتمع جاهز ومنظّم، ويغلق الطريق أمام العوز أو الحاجة أو المساعدة من جواد أو غيره.

والجواد لا يهب إلّا للمحتاج، فإن كان المجتمع قد ساد العدل فيه ففيما الحاجة للمساعدة أو غيرها؟ مثل أن لا يوجد في البدن عضوٌ ناقص أو مريض يستدعي العون والمساعدة من سائر الأعضاء.

والثاني: العدل سائسٌ عام، والجودُ عارضٌ خاص: فالعدالة قانون عام يدير شؤون المجتمع بأجمعها، فهو طريق يسلكه الجميع. أمّا الجود فهو حالة استثنائية خاصة، لا يمكن أن تصبح قانوناً عامًّا، أو تُعمّم، فإنّه لو كان كذلك لم يُحسب جواداً آنذاك.

لذا استنتج عليه السلام فقال: فالعدل أفضلها وأشرفها، حيث كانت التربية والمعرفة عند الإمام، وعند المصلحين، تقدّم الأصول والمبادىء الاجتماعيّة، على الأصول والمبادىء الفردية، وجعل الأولى هي الأصل، والثانية الفرع. فالعدل عنده هو الأصل الذي يصون المجتمع ويحافظ على توازنه.

والإمام عليه السلام يحسب العدل وظيفة إلهيّة، بل ناموساً إلهيّاً، فلا يصح أن يقف الإنسان المحترم لإنسانيته وقفة المتفرّج إذا تُرك العدل.

وهو أيضاً لا يُهادن في موضوع العدل والإصلاح ومحاربة الفساد،

---

(١) في باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، من نهج البلاغة، رقم (٤٣١)، الصفحة (٧٢٣).

من أجل مصلحة معينة، أو تعليل لظرفٍ خاص، فلا مواسم للعدل، ولا ظرف، ولا مناسبة.

وكذلك المصلحون، لا نصيب عندهم للانحياز عن جادة العدل، إن اقتضت المداهنة، أو السياسة، أو الظروف ذلك.

«فالحقُّ القديم لا يبطله شيء»... [إنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق][1].

ويقول عليه السلام: [يا أسرى الرغبة! أقصروا فإنّ المعرّج على الدنيا لا يروعه منها إلّا صريف أنياب الحِدْثان. أيها الناس! تولّوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها][2].

الرغبة: الطمع. وأقصروا: أكفوا. والمعرّج: المائل إليها، أو المعوّل عليها، أو المقيم بها. يروعه: يفزعه. الصريف: صوت الأسنان عند اصطكاكها. والحِدْثان: النوائب. الضراوة: اللهج بالشيء والولوع به. أي كفوا أنفسكم عن أتباع ما تدفع إليه عاداتها، وكسر عادية عادات السوء المكتسبة فيها.

فهو عليه السلام، يدعو إلى الكفّ عن طلب الطمع، وتحرير النفس من قيوده، واعتبار آفة لا ينوب أسيره سوى النوائب، ويطلب تأديب النفس وترويضها، وكسر جماح الطمع الموصل إلى تلك النوائب.

وأيّ إنسان استحوذ عليه الطمع، وأسرته الرغبة، فقد وضع قدمه على أوّل الطريق المؤدّي إلى الفساد، المغاير في الاتجاه عن النزاهة ومكارم الأخلاق.

---

(١) من كلام له عليه السلام، رقم (١٥)، الصفحة (٦٧)، في نهج البلاغة.

(٢) في باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٥٨)، الصفحة (٧٠٦)، نهج البلاغة.

فإذا كانت القناعة كنز لا ينفد، فإنّ المال مادّة الشهوات. قال رجل لبقراط وقد رآه يأكل العُشب: لو خدمت الملك لم تحتج إلى أنْ تأكل الحشيش، فقال له بقراط: وأنت إنْ أكلت الحشيش لم تحتج أنْ تخدم الملك.

ومن كلام أحد الحكماء: قاهر الغنى بالتعفّف، وقاوم الفقر بالقناعة، وطاول عناء الحاسد بحسن الصنع، وغالب الموت بالذكر الجميل.

وقال آخر: الناس رجلان، واجدٌ لا يكتفي، وطالبٌ لا يجد. وقد أخذه الشاعر فقال:

وما الناسُ إلّا واجدٌ لا يكتفي بأرزاقه أو طالبٌ غيرُ واجدِ

وقد كثر قول الناس عن المال، فمنه:

قول أعرابي لبنيه: اجمعوا الدراهم، فإنها تُلبس اليلمق، وتُطعمُ الجردق. واليلمق: القباء «فارسيٌّ معرّب».

والجردق: الرغيف «فارسيٌّ معرّب».

وقال أعرابي، وقد نظر إلى دينار: قاتلك الله! ما أصغر قمّتك، وأكبر همّتك.

ومن كلام الحكماء: ما اخترتَ أنْ تحيا به فمت دونه. وقد سُئل أفلاطون عن المال، فقال: ما أقول في شيءٍ يُعطيه الحظُّ، ويحفظه اللّؤم، ويبلغه الكرم!.

وكان يُقال: ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم: تاجرُ البحر، والمقاتل بالأجر، والمرتشي في الحكم، وهو شرّهم، لأنّ الأولّين ربّما سَلِما، ولا سلامة للثالث من الإثم.

وقالوا أيضاً: المالُ لا ينفعك ما لم تفارقه. والمالُ مثل الماء غادٍ ورائح، طبعه كطبع الصبيّ، لا يُوقف على سبب رضاه ولا سخطه.

ومن أهميّة موضوع النزاهة اعتمدنا الأخذ به عنواناً لمضمون كتابنا الجديد. وقد وضعنا نصب أعيننا أهميّة التركيز على المفاهيم ذات العلاقة بموضوع النزاهة من نهج البلاغة، والأخذ بثوابت ثقافة النزاهة من كلام أمير المؤمنين ﷺ، مع استلهام الدروس المهمّة في هذا الباب الحيوي والجوهري من أبواب النجاح في أيّ مسعاً أو تجربة يعتملها بناة المجتمع وقادة الأمّة. وصولاً لما يُرجى في هذه المساعي من تسريع الخُطى نحو الرقيّ والازدهار والبناء، وتجنّب أسباب الفشل ومعالجة معوقات النجاح.

مع إيماننا أنّ مجتمعاتنا الإسلامية والعربية على وجه العموم، والمجتمع العراقي على وجه الخصوص ـ ضمن مقومات نجاح تجربته الجديدة ـ بأمس الحاجة إلى مثل هذه الأطروحات، كعامل مهم في بناء نهضتها، والارتقاء بها إلى مصاف المجتمعات المتحضرة والراقية.

ووضع الأسس السليمة في بنائها، واعتماد الأهداف القويمة لنجاحها وعلو شأنها. ثم الأخذ بأسباب هذا النجاح، خروجاً من حالة الفشل والشعور باليأس والإحباط، ومقاومة الركون إلى الدعة وعدم المبالاة، ومجابهة الإهمال في العلاج، وإيجاد السبل لردم أيّ هوّة تخذّل الهمّة، وتحبط العزيمة، وتقف بوجه التقدم.

إنّ الفساد الإداري، حالة مرضية شأنه شأن باقي الأمراض الأخرى، فهو بحاجة إلى التشخيص والعلاج. وهو من أشد الحالات المرضيّة وأصعبها وأخطرها، إلّا أنّ ذلك لا يجعلنا مكتوفي الأيدي، أو يمنع من السعي، والأخذ بشتّى السبل والوسائل للوصول إلى الشفاء والتعافي من هذا الداء الوبيل.

رغم أنّ موضوع النزاهة، ومعالجة الفساد الإداري، شائكٌ وله من الجوانب والنوافذ ما يصعب حصرها، إلّا أنّني حاولت مواكبة أكثرها أهميّة، وأبعدها أثراً، وأشدّها التصاقاً بالموضوع. وانتهاج مسلك التشخيص والمعالجة، لا مبدأ التحليل والمباحثة فقط. فالغاية تحصيل الحلول، واستثمار الفائدة، وإيجاد أسباب النجاح.

ومن منهج البحث أنْ لا نترك شاردة أو واردة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، له صلة بثقافة النزاهة، إلّا وأخذنا به من خطب ورسائل وكتب وحِكَم الإمام عليه السلام.

وقد اعتمدنا كتاب نهج البلاغة بطبعته الأولى المصححة لمؤسسة الأعلمي للمطبوعات لسنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ـ وذكر الكلام وأرقام الصفحات من تلك النسخة، مع الأخذ من مصادر أو نسخ أخرى إذا اقتضت الضرورة، أو كان فيه فائدة.

إنّ في تقصّي التجارب، رغم الاختلاف بين الأمس واليوم، وامتداد هذا الاختلاف بقدر المسافة الزمنيّة الفاصلة بينها، فائدةٌ كبيرة، وعِبَر واضحة، والإنسان هو الإنسان، وما الحاضر إلّا ابنٌ للماضي، وأبٌ للمستقبل، والبعض يأخذ من البعض، والكلُّ عائدٌ للجبّلة البشريّة، والفطرة التي فطر الله سبحانه الناس عليها، من نبذ السيئ، وتقبّل الحسن.

وقد دفعني حرصي في تحصيل رضا الله تعالى، أن أقدّم هذا الجهد المفيد والنافع، بإذنه تعالى، بين يدي القارىء العزيز، معتمداً ذوقه الرفيع في تقدير الغثّ من السمين، وتقييم نفعه إنْ استحق ذلك. ودعواتي من الله أنْ يُلهمني الصواب، ويبعدني عن المزالق، وينزّه قلمي

من الزلل، ويثبّت قلبي، ويهدي بصيرتي، لنوال رضاه أوّلاً وآخراً. وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى، وآله أهل الوفى، وصحبه النجباء الشرفاء.

النزاهة في اللغة

جاء في كتاب العين للفراهيدي، في باب نزه: مكانٌ نزه، وتنزّهت عن كذا، أي رفعت نفسي عنه تكرّماً ورغبة عنه.

وتنزيه الله: تسبيحه، وهو تبرئته عمّا يصف المشركون.

وفي معنى النزاهة: البعد عن السوء وترك الشبات.

ونزيه: بعيد عن كلّ مكروه ـ يتنزّه عن الأقذار والرذائل.

والنازه: العفيف المتكرّم.

والنزيهة: التي تزيّنت وتصوّنت وبدت عمّا يُشين، وتنزّهت عن الرذائل.

وجاء في المعجم الوسيط في معنى النزاهة: البعد عن الكذب. العفّة.

ونَزِهَ نزاهةً ونزاهية: ابتعد عن المكروه. عفَّ عن المعاصي: أبعدها عنه، امتنع عن ممارستها.

والنَّزه: البعد عن المساوىء.

مفهوم النزاهة من الآيات القرآنية:

لا يسعنا في هذه الإطلالة السريعة خلال الآيات القرآنية الكريمة،

من حصر جميع الآيات الداعية إلى محاربة الفساد، والنهي عنه، فلا تكاد سورة من سور القرآن الكريم تخلو من هذا المفهوم، أو تنظّر له، أو تشرّع لمكارم الأخلاق، وإشاعة مفاهيم العدل والنزاهة، والأمانة ونبذ الفساد والظلم، والتحذير من خيانة الأمانة.

وما كانت أهداف الرسالات السماوية، وبعثة الأنبياء، إلّا لهذه الغاية النبيلة، لتعيش المجتمعات حياة الخير والعدالة والاطمئنان، والابتعاد عن الظلم والفساد والخوف والحرمان.

الله سبحانه، لا يحبُّ المفسدين، وقد ذكر جلّ وعلا هذه المفردة لأكثر من عشرين مرّة، وفي مواطن متعددة، يحذّر من الفساد، ويتوعّد المفسدين بأشدّ العقاب.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ **[البقرة ٦٠، الأعراف ٧٤، هود ٨٥].** ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[المائدة ٦٤].** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[القصص ٧٧].**

وقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[الأعراف ٨٦].**

وقوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[الأعراف ١٠٣، النمل ١٤].** وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[يونس ٨١].** و﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[الأعراف ١٤٢].**

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ **[الأعراف ٥٦، ٨٥].** وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **[البقرة ٢٧].** و﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ **[الشعراء ١٥١ ـ ١٥٢].**

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة ٢٠٥].

وآيات أخريات تطرقت إلى رفض الفساد وتحريمه، والوعيد عليه بأشدّ العقاب، لما له من آثار سلبية في حياة الناس والمجتمع، وما يؤول إليه ذلك الأثر من تدمير وتخريب وتهديم.

وإنْ كان إشارة الآيات إلى الفساد تتوسّع وتشمل مفاهيم أخرى ومطالب غير الفساد الذي هو نقيض النزاهة. إلّا أنّ الفساد هو الفساد، ورفضه قائم في الآيات القرآنية، والتعاليم السماوية، بجميع غاياته وشؤونه ومواطنه.

وكثيرةٌ هي الآيات المحفّزة على الوفاء وأداء الأمانة، ونبذ الخيانة واهتضام الحقوق.

يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٨١، آل عمران ١٦١].

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٧٦]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد ٢٠].

والنزاهة وعدم الفساد في أي مهمّة يوكل بها الإنسان، من الوفاء بالعهد، وعدم نقض المواثيق، والتي واعد سبحانه بالجزاء عليها.

وقوله عزّ من قائل: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء ٣٤]. والله يحاسب من لا يفي بالعهد، فكل عهد مسؤول. أمام الناس وأمام الله، واجب الوفاء، ومحاسبٌ به أو عليه. كذلك في صون الأمانة والحفاظ عليها إشارات باهرة في كتاب الله العزيز. قال سبحانه: ﴿إِنَّا

﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة ٢٨٣].

وأداء الأمانة المشار إليها في الآية الكريمة، تنعكس على كلّ أمانة، وليست لموضوع الدَيْن وما يتصل به فقط. فواجب أداء الأمانة والنزاهة فيها، من مصاديق هذه الآية الكريمة، وغيرها من الآيات.

وقد ذكر صاحب الميزان أنّ في هذه الآية والتي سبقتها والمسمّاة: آية الدَيْن، وهي أطول آية في القرآن الكريم، أنّهما تدلّان على ما يقرب من عشرين حكماً من أصول أحكام الدَيْن والرهن وغيرهما.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء ٥٨]. والآية الكريمة وإنْ وردت لسببٍ خاص، فعمومها معتبر بقرينة الجمع.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال ٢٧]. التي اؤتمنتم عليها من دَيْن أو عمل أو منصب أو مركز أو أيّ شيءٍ وكّل إليكم وتعاقدتم عليه وعلى أداء أمانته.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المومنون ٨، المعارج ٣٢]. فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الله من صلاة وغيرها. راعون: حافظون.

وكثيرة الآيات القرآنية الداعية إلى التقوى، والمحفّزة عليها، وما واعد الله به المتّقين من وافر النّعم وعظيم الجزاء، وطيب المآل، وحسن الثواب.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم ٦٣].

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران ١٠٢]. و﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة ١٩٧].

وقوله سبحانه: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [المائدة ٨]. وقوله عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ ا[محمد ١٧].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس ٧، ٨]. بيّن لها طريقي الخير والشرّ، فالنفس وما اختارت، وحسابها بموجب اختيارها.

وقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص ٤٩].

أي المرجع في الآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه ١٣٢].

وغيرها من الآيات البيّنات، تذكر التقوى والمتقين، وتبشّرهم بالنّعيم وطيب المرجع، وتتوعد من لا تقوى لهم بأشدّ العقاب وأمرّ العذاب.

ومن الآيات التي تحذّر من البخس، وتعتبره مفسدة في الأرض توجب المقت والنقد والحساب.

ففي سورة الأعراف، الآية ٨٥: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

والبخس: النقص، ولا ينحصر النهي عن البخس في مسألة الميزان والمكيال وما يتعلق بهما، ولكن يمكن سوقه على أمور أخرى، فيما

يتعلق بحقوق الناس ومصالحهم، ومنافعهم، وفي كثير من الحالات.

فالموظف مثلاً، منهيّ عن البخس في حقوق الناس، إذ يفترض أنّه قد استُخدم في وظيفته لإنجاز معاملات الناس، وتأدية مطالبهم لقاء أجر خصص له لأجل ذلك. فإنّ كلّ تقصير أو إهمال أو إيغال في هذه الحاجات أو المطالب، بخسٌ لحقوقهم، يوجب المسألة والحساب والعقاب.

وفي سورة هود الآية ٨٥: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

من عثِيَ بكسر المثلثة: أي أفسد، ومفسدون مؤكد لمعنى عاملها: تعثوا. وفسّر البعض العثي: أشدّ الفساد والخراب.

وفي الآية ١٨٣ في سورة الشعراء: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وفسّر بعضهم البخس: بالظلم، ومنه المثل: «تحسبها حمقاء وهي باخس».

وآيات تنهى عن أكل الأموال بالباطل، وتصف ذلك الأكل بالإثم، أو الفعل الموجب للإثم. أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالغصب والظلم والوجوه التي لا تحُل، كالرشوة أو الاختلاس أو خيانة الأمانة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٨٨].

بأنْ يحكم الحاكم بالظاهر، وكان الأمر في الباطن بخلافه. «وأنتم تعلمون» أنّ ذلك المال ليس بحقّ لكم، ومع ذلك تقدمون على أخذه، وهذا أشدّ في الزجر، لذا فإنّ الإقدام على الفساد مع العلم به أو التمكن من العلم، أعظم إثماً وأكبر ذنباً.



مفهوم النزاهة
في الحديث النبوي الشريف

في الحديث النبوي الشريف إشارات لا تخفى عن نبذ الفساد واستهجانه، وتوبيخ المفسدين أو الساعين إلى الفساد، أو العاملين به والمشجعين عليه، وحثٌّ على الأمانة والنزاهة وحفظ الحقوق، والعمل بالعدل وموازين القسط.

وليس الغرض هنا حصر واستيعاب الأحاديث النبوية الشريفة الداعية لنبذ الفساد، وتشجيع ثقافة النزاهة، والدعوة لمكارم الأخلاق، فهذا ما يستدعي بحثاً مستقلًا، ولكن وجبت الإشارة إليه، للتنوّر بالمفاهيم النبويّة والأحاديث العطرة من خلال هذه الإشارة السريعة والمختصرة.

في الحديث المرفوع: أدِ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك[1].

وعن ابن عمر، قال رسول الله ﷺ: أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفّة مطعم[2].

---

(١) الجامع الصغير (٢٤٠).

(٢) الجامع الصغير (٨٧٥).

وهناك أحاديث كثيرة تحثُّ على حفظ الأمانة، وأدائها، وعدم التفريط بها، وإنّما اقتصرنا بهذين الحديثين للاختصار.

ومن الأحاديث الشريفة فيها تنفير وتحذير من الغش أو الخيانة، وهي تنسحب بكل تأكيد على كثير من الأمور، كالغش في العمل، أو في إدارة الوظائف والمسؤوليات المناطة بالإنسان، وتتوعّد بالجزاء عليها، واعتبارها من الرذائل وأعمال الفساد، والمظالم.

وفي الحديث أنّه ﷺ قال: ليس منّا من غش[1].

وفي حديث آخر، يعتبر الخيانة من الأعمال المستوجبة للعقاب ودخول النار. يقول ﷺ: المكر والخديعة والخيانة في النار[2].

وفي الحديث المرفوع: اللهم إنّي أعوذ بك من الجوع، فبئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة[3].

ويقول ﷺ: إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون[4].

فمن جملة ما استخلف الله سبحانه به عباده، أنْ مكّنهم من أمور الناس، أو شؤون الحكم، أو أمانة المسؤولية. وهو سبحانه يجازي على العمل، فإنْ كان خير فبخير، وإنْ كان شرّ فشر. وليس حبّ الدنيا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ (١٠٢)، والترمذي، وأبو داود في كتاب البيوع (٣٤٥٢)، وابن ماجه.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥)، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٧٨٣٠)، والسيوطي في الجامع الصغير (٩٢٣٣).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الاستعاذة (٤٥٦٨)، وأبو داود، كتاب الصلاة (١٥٤٧).

(٤) أخرجه مسلم، والترمذي، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

وحلاوتها وخضرتها، يشفع للاغترار بها والعمل بغير ما يُرضي الله، بإتيان المفاسد أو الظلم أو هدر حقوق الناس. والمسؤولية أو الولاية أو الحكم، أو أي عمل يُناط بالإنسان القيام به، مقابل ما يتقاضاه من الأجر، ما هي إلّا أمانة في عنقه واجبٌ عليه احترامها وأداثها بالوجه الذي يبعدْ عن الفساد، ويقرّبه من العدل والنزاهة.

في الحديث المرفوع: ما من والٍ يلي شيئاً من أمر «أمتي» إلّا أتي به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثمّ يُنشر كتابه، فإنْ كان عادلاً نجا، وإنْ كان جائراً هوى[1].

وفي حديث آخر بنفس المعنى واختلاف الألفاظ: ليس أحدٌ يحكم بين الناس إلّا جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فكّه العدل، وأسلمه الجور[2].

ويُحذّر ﷺ من الطمع، الآفة المهلكة، والمرض الفتّاك، الذي يصيب النفوس الضعيفة، فيهينها، ويُصغر شأنها، ويُفقرها ويحطّ من قدرها.

يقول ﷺ: الطمع الفقر الحاضر[3].

وفي النهي عن الطمع حديث آخر، بلفظ مختلف: إيّاك والطمع، فإنّه فقر حاضر[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٠٦٩)، وأحمد في مسنده (٢٢٢٧٥)، والدارمي، كتاب السير، باب التشديد في الإمارة (٢٥١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٢٠).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٢٨)، والطبراني في الأوسط (٧٧٥٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٠٦٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (١٠١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٢١).

في الحديث المرفوع: اجملوا في الطّلب، فإنّه ليس لعبدٍ إلّا ما كُتب له، ولن يخرج من الدنيا حتى يأتيه ما كُتب له فيها، وهي راغمة[١].

وفي حديث آخر بنفس مقصد الحديث السابق بألفاظ مختلفة: لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاجملوا في الطّلب[٢].

وهناك أحاديث كثيرة، تنبه عن السحت، وهو المال الحرام، المأخوذ بغير حقّه، كالرشوة أو الاختلاس أو السرقة والاعتداء على المال العام، أو استغلال المنصب والوظيفة والعمل للكسب الحرام، والسحت الممجوج.

في الحديث المرفوع: لا يدخل الجنّة لحم نبت من السحت، النار أولى به[٣].

وفي الحديث أيضاً: لو أنّ لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلّا التراب[٤].

ولن تهمل الأحاديث النبوية الشريفة صغيرة أو كبيرة في مجال مكافحة الفساد ونبذه، وإفشاء ثقافة النزاهة والعدل والإنصاف. فهذا الحديث ينهى عن الاحتكار، ويلعن المحتكر، لما في الاحتكار من فساد، وخراب اقتصادي، وتبعة سلبية في حياة الناس والمجتمع، وأحواله المادية والنفسيّة والتربوية.

---

(١) أخرج نحوه ابن ماجه والبيهقي في السنن الكبرى (١٠١٤٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٣٣٢)، والبزاز في المسند (٢٩١٤)، والبيهقي في (الشعب) (١١٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي، وأحمد في مسنده (١٤٠٣٢)، والدارمي في الرقاق (٢٧٧٦).

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي في كتاب الزهد (٢٣٣٧)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (١٢٣٠٦).

يقول ﷺ: الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون[1].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ، قال: اتقوا الظلم، فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، رواه مسلم.

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا، رواه مسلم.

وفي الحديث: أطب كسبك تُستجب دعوتك[2].

جاعلاً طيب المأكل، من شروط قبول الدعاء والاستجابة له.

وجاء عنه ﷺ: من اكتسب مالاً في نهاوش، أذهبه الله في نهابر. والنهاوش: المظالم بأنواعها، كالرشا والاختلاس والسرقات وسلب حقوق الناس.

والنهابر: المهالك. وقد لمسنا مصاديق ذهاب المال الحرام، والسحت وعواقبه بالتجارب، وما حكته الأيام والظروف.

وإن اقتصرنا على هذه الدرر الثمينة من الكنز النبوي، «فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، . . . سيرته القصد، وسنّته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل»[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢١٥٣)، والدارمي في كتاب البيوع (٢٥٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥).

(٣) من خطبة لأمير المؤمنين «في صفة الأنبياء» رقم (٩٣)، الصفحة (٢١٣) من نهج البلاغة.

مدخل

جاءت الآية الكريمة ٢٩ من سورة الأعراف: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[1]. فلما بيّن سبحانه أنه لا يأمر بالفحشاء، وهو اسمٌ جامعٌ للقبائح والسيئات، عقّبه ببيان ما يأمر به من القسط، وهو اسمٌ جامعٌ للفضائل والخيرات، وجاء القول بفعل الأمر على العمل بالقسط. وتندرج في مصاديقه: الاستقامة والعدل والنزاهة وأداء الأمانة ونبذ الفساد، مع ما فيه من دلائل أوسع من هذا: كالتوحيد وقول لا إله إلّا الله أو الاعتدال، أو ما يجمع من الطاعات والقرب. وفي الآية ٢٥ من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي العدل، والمراد: وأمرنا بالعدل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[2].

أي: وأنزل الله العدل. والميزان عبارة عن العدل، كنّى به عنه، وإنّما سمّي العدل ميزاناً، لأنّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الناس. مع ما به من معانٍ أخرى: كالدين المشتمل عليه الكتاب.

فلقدسيّة العدل، جُعل هدفاً لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٨).

(٢) سورة الشورى، الآية (١٧).

أسمى مهام الأنبياء وأولى غاياتهم. وكذلك أهداف جميع المصلحين، والمهتمين ببناء المجتمعات، وأصحاب الرسالات السامية، والداعية إلى خدمة الإنسان ومنحه الدرجة التي يستحقها من الكرامة والاحترام والتقدير، مثلما أرادها له خالقه، إذ فضله على سائر المخلوقات، وأورثه الأرض وما عليها، ليقوم بإعمارها وإصلاحها والعمل فيها.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1].

وحتى يتم إجراء القسط في الأرض وبين الخلق، لا بدّ من قائمٍ يقوم بهذه المهمة، وهو الإنسان، ولا بدّ من قوانين وأحكام موجّهة، ليستطيع ذلك الإنسان من أداء المهمة بصورتها الصحيحة الحقّة. وهذه المهمة ما هي إلّا وسيلة لإجراء العدل وإحقاق الحق، وإنصاف وخدمة الخلق.

ومع أنّ المفاهيم التربوية، لا تكون متطابقة أو متشابهة تماماً في أفكار الناس وتقييمهم، وحتى بين أبناء العصر الواحد، فمع اختلاف الناس وتنوّع مشاربهم، تتفاوت النظرة للمفاهيم أو المبادىء بينهم، وتختلف أساليب التفكير ومجالاتها، وتتباين الأحكام والتواصيف فيها، ولكنهم في المسائل العمومية، يتقارب الجميع ويلتقون في كثير من النقاط، وتتشابه إلى حدٍّ بعيد أحكامهم وتعريفاتهم لها. فالحقّ بيّن، والباطل كذلك.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يَخْفَ على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين][2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

(٢) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٥٠)، الصفحة ١٢٣)، نهج البلاغة.

فالحقّ لو كان خالياً من ممازجة الباطل ومشابهته لكان ظاهراً لمن طلبه. إنّما بينهما الشبهة: [وإنّما سمّيت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحقّ، فأمّا أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى «أي طريقته»، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال، ودليلهم العمى][1].

لذلك فإنّ ما يحتجّ به أهل الحقّ يسمّى دليلاً، وما يحتجّ به أهل الباطل يسمّى شبهة.

ويظهر فساد الشبهة وتنحل لمن يراعي اليقين، ويطلب المقدمات المعلومة قطعاً، ويعتبر مقدمات الشبهة. أمّا من ينظر للشبهة من غير أن يراعي الأمور اليقينّة، ولا يراعي المقدمات ويحللها، بل تغلب عليه العصبيّة، والأثَرة، وحبّ الذات، فذلك هو العمى والضلال، الذي ذكره عليه السلام، فلا تنحل له الشبهة، وتزداد عقيدته فساداً.

ويقول عليه السلام: [حقٌّ وباطل، ولكلٍّ أهل][2]، فما يمكن أنْ يكون عليه الناس ينحصر في أمرين: إمّا حقّ، أو باطل، وهكذا فالعالم لا يخلو منهما. وللحقّ أهل، وللباطل أهل. ورغم كثرة أهل الباطل وتمكّنهم، إلّا أنّ ذلك لا يدفع أهل الحقّ إلى الاستيحاش، أو الشعور بالضعف، أو الهوان. «فلا تستوحشوا في طريق الحقّ لقلّة سالكيه»، كما يقول عليه السلام.

وليست المعادلة الصحيحة أنْ تعرف الحقّ بالرجال، وإنّما يُعرف الرجال بالحقّ. يقول عليه السلام: [إنّك لم تعرف الحقّ فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه][3].

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين (٤)، رقم (٣٨)، الصفحة (١١٢)، نهج البلاغة.

(٢) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، لما بويع له، رقم (١٦)، الصفحة (٦٩)، نهج البلاغة.

(٣) في باب حكم لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٦٤)، الصفحة (٦٨٦)، نهج البلاغة.

فلا يغرنّك منزلة الرجل أو مكانته في أنّ كلّ ما يأتي به هو الصواب، فربّما يكون منها الباطل أو الخطأ، ومنزلته ومقامه يصوران لك أنّه الحقّ. فإنْ عرفت الحقّ وميّزته عن نقيضه، تعرف أهله، وبنفس المعادلة تعرف أهل الباطل أيضاً.

ثم يحذّر عليه السلام فيقول: [ولا تُرخّصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص فيها مذاهب الظّلمة][1]. أي لا تساهلوا أنفسكم في ترك تشديد المعصية، ولا تسامحوها وترخصوا إليها في ارتكاب الصغائر والمحقّرات من الأخطاء، فتهيج بكم على كبائرها، لأنّ من مرن على أمرٍ تدرّج من صغيره إلى كبيره. وهذا من أعلى وأشرف الكلام، في تدريب النفس وترويضها وتعويدها على نبذ المفاسد والابتعاد عنها، والتخويف من صغيرها، حتى لا يقع في كبيرها.

ويعتبر أنّ أتباع الهوى يصدُّ عن الحقّ، فيقول: [فأمّا أتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ][2]، وذلك صحيح لا ريب فيه، لأنّ الهوى يعمي البصيرة، وما زال الهوى مردياً قتّالاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه»[4].

وهو عليه السلام يحذّر من مقاومة الحقّ ومجابهته، وإبداء العداء

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين (ع)، رقم (٨٥)، الصفحة (١٧٨)، نهج البلاغة.

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٤٢)، الصفحة (١١٦)، نهج البلاغة.

(٣) سورة النازعات، الآية (٤٠).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٥٤٥٢)، والشهاب من مسنده (٣٢٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٧٤٥)، وابن المبارك في الزهد، (١٢٣).

والمحاربة له، يقول: [من أبدى صفحته للحقّ هلك][1] وإبداء الصفحة: إظهار الوجه، أي ظهر بمقاومة الحقّ.

وقد يكون المعنى: منْ أعرض عن الحقّ. وإبداء الصفحة من معانيها: أنّ الصفحة تظهر عند الإعراض بالجانب.

ويقول أيضاً: [من صارع الحق صرعه][2]، بالحجّة، فإن الحقّ حجته قائمة وواضحة تفلج في كل حال.

أو المراد أنّ الصرعة تأتي بعد حين أو بالعاقبة.

ويدعو عليه السلام إلى التعوّد على مقالة الحقّ، وعدم الكفّ عنها، مع عدم استثقال من تُعرض عليه. يقول عليه السلام: [فإنّه من استثقل الحقّ أنْ يُقال له، أو العدل أنْ يُعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ، أو مشورةٍ بعدل][3]، وهذه أيضاً من أعلى وأجل التشريعات في مجال العمل الديمقراطي، والشراكة في الرأي وفي القرار، وفي التوجيهات الأساسيّة بخصوص العلاقة بين الناس والمسؤول، أو بين الحاكم والمحكوم. بأن لا يمتنع المرء من قول الحقّ وإبداء الرأي، أو المشورة العادلة.

والمسؤول لا يستثقل من سماع كلمة الحقّ تُقال له، أو مشورة العدل تُعرض عليه. فلو حصل ذلك الاستثقال، كان العمل بالحقّ والعدل عليه أثقل.

وهو يصف العلاقة الطبيعية بين الحاكم والمحكوم، والتي يُفترض أن تكون عليها، من غير حواجز، أو اصطناع أو تكليف.

---

(١) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٨٨)، الصفحة (٦٦٨)، نهج البلاغة.

(٢) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٤٠٢)، الصفحة (٧١٧)، نهج البلاغة.

(٣) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام بصفين، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٥٢، ٤٥٣)، نهج البلاغة.

يقول ﷺ: [ولا تتحفّظوا مني بما يُتحفّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة][1].

وأهل البادرة: هم أهل الغضب، والمصانعة: المداراة.

فهو ينهى عن المخاطبة بالألقاب التي يلقّب بها الجبابرة، وينهى كذلك من التحفّظ منه بالتزام الذلّة، والموافقة على الرأي صواباً كان أو خطأً، كما يُفعل مع الظلمة وأهل البادرة، فلا يُعرض عليه إلّا ما يُرضيه ولا يغضبه، فتأتي المصانعة من ذلك، وتكون الأخطاء، ويكون حينها الفساد.

إنّ طاعة الناس وانسجامهم مع المسؤول، منوطة بما يقدمه ذلك المسؤول من أعمال مفيدة، وخدمات منتجة، وما يؤديه من الواجب الذي على عاتقه، والحقوق التي عليه الفراغ من أدائها، والفرائض التي لا بدّ من إمضائها.

لا لمجرد تسنّمه مسؤوليته، ليكون ذلك حاجزاً بينه وبين من يردُّ عليه، أو يعترض طريقه أو يرشده لما هو صواب. ولا أن يُبيح عمل ما يحلو له، أو ما يتّفق وهواه ومصالحه فقط. لذا فالواجب أن يعتقد أنّه بعين الرقيب، وذلك الرقيب لا يغفل عن شيء، وإنّ تغاضى عنه، فهو مبديه بعد حين، وسيخضع ما يبديه لأثر التراكمات، وتكرر الأخطاء، وتوالي العثرات، ومن هذا يتولّد الانفجار، أو التعبير والانفعال. حتى تكون قابلية التدارك والتصحيح ضعيفة، وفي كثير من الأحيان غير مجدية. وكان باستطاعته النأي عن ذلك كلّه، بالمبادرة في أوّل الوقت، وعدم إرجاء ما يجب عليه، وما يُفترض به.

---

(١) نفس المصدر السابق، الصفحة (٤٥٢).

يقول عليه السلام: [وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس، أنْ يُظنَّ بهم حبُّ الفخر، ويوضع أمرهم على الكِبْر][1]. أصل السخف: رقّة العقل. والمراد: أنّه من أضعف حالات الولاة، أنْ يُظنّ بهم حبّهم للفخر، وميلهم لسماع الإطراء، أو المبالغة في الثناء، وبناء أمورهم على أساس الكبر. وهذا القول منه عليه السلام، فيه ما لا يخفى من الرفعة. وسمو النفس، وجلال القدر، والترفّع عن الصغائر.

يقول عليه السلام: [فلا تثنوا عليَّ بجميل ثناءٍ لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقيّة، في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بدّ من إمضائها][2].

ما أجمل هذا القول وأجمعه. لإخراجي متعلق بتثنوا.

والتقيّة: الخوف. أي إني أُخرج نفسي من عقاب الله في قضاء الفرائض وأداء الحقوق، فلا حاجة للثناء على ذلك، وإنّما أنا وَقّيت نفسي فيها، وعملت لسعادتي بأدائها. أو باعترافي بين يدي الله وبمحضرٍ منكم، أنّ عليَّ حقوقاً في إيالتكم، لم أقم بها بعد، وواجب عليَّ أنْ أعملها، وأرجو من الله ذلك. وإنّما الثناء بعد البلاء، فلو كان الثناء سائغ وغير قبيح، لما جاز لكم أن تثنوا عليَّ في وجهي، ولا أنْ أسمعه منكم، وعليَّ بقيّةٌ من فرائض وحقوق لم أنتهي من إمضائها والفراغ منها.

وهذا كلامٌ عالٍ بعيدٌ في غوره، عميقٌ في معناه، شريفٌ في غايته.

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.



هداية ودليل

لا شكَّ أنّ المتتبّع والدارس لنهج البلاغة، يجد فيه من الهدي الشيء الكثير، وما جالسه أحد إلّا وقام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة من معرفة وهدي، أو نقصان من حيرةٍ وضلال. ولا غربة فإنّ صاحب النهج جليس القرآن: الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدّث الذي لا يكذب.

وما جالسه أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ من هدى، أو نقصانٍ، من عمى، كما يقول عليه السلام[1].

وهو تلميذ رسول الله صلى الله عليه وآله: إمام المتكلّمين، وأبلغ الناطقين عليه السلام. لنحاول من بين هذا العنوان، أن نستهدي ببعض أغراضه، ومفاهيمه، ونروي بشيءٍ من غديره، ونغتذي من موائده، بتناول بعض ما يخص موضوع العدالة والنزاهة وثقافتها.

✱ ما له وما عليه:

يقول عليه السلام: [فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقًّا بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم][2].

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٧٤)، الصفحة (٣٥٣)، نهج البلاغة.

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٤٩)، نهج البلاغة.

أمّا حقّه عليهم بعد ولايته أمرهم، هو وجوب الطاعة. وأمّا حقّهم عليه، فهو بوجب معدلته فيهم.

فتتكافأ الحقوق بين الوالي والرعيّة. وهذه الحقوق فرضها الله سبحانه لكلٍّ وعلى الكل، فجعلها نظاماً لإلفتهم، وتوطيداً لعزّتهم. وعندما تؤدّى هذه الحقوق من الطرفين، يعزّ الحقّ بينهم، وتقوم معالم العدل، فيصلح بذلك الزمان، ويُطمع في بقاء الدولة، وييأس من مطامع الأعداء.

وإذا أجحف الوالي الرعية، وغلبت الرعية الوالي: اختلفت الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال، وتركت محاجّ السنن.

فيُعمل بالهوى، وتُعطّل الأحكام، وتزداد علل النفوس.

والأمر متصل بالعلاقة بين المسؤول والناس، وكيف لهذه العلاقة أنْ تسير وتقوم. فلا مناص من حاجة بعضهم إلى بعض، والإعانة والمساعدة بينهما.

يقول عليه السلام: [وليس امرؤٌ وإنْ عظمت في الحقّ منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته، بفوق أنْ يُعانَ على ما حمَّله الله من حقّه، ولا امرؤٌ وإنْ صغّرته النفوس، واقتحمته العيون، بدون أنْ يُعينَ على ذلك أو يُعانَ عليه][1] فليس أحدٌ بأعلى من أن يحتاج إلى الإعانة أو يستغني عن المساعدة. ولا أحدٌ اقتحمته أي احتقرته العيون، بأعجز أن يساعد غيره.

وهو كلام جليل القدر، رفيع المعنى، لا يأتي إلّا من عظيم النفس، سامي المنزلة، صافي الروح والوجدان.

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٥١)، نهج البلاغة.

بين القول والعمل:

يقول ﷺ: [والحقّ أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف][1].

فكلّ أحدٍ يصف الحقّ، ويذكر محاسنه ووجوبه، ويقول: لو ولّيتُ لعدلت. فهو في الوصف باللسان وسيع، وبالفعل ضيّق. أي قولٌ بغير عمل. فيتّسع القول في وصفه، فإذا وجب الحقّ على الواصف، فرَّ منه ومن أدائه، ولم ينتصف من نفسه كما ينتصف لها.

ثم يقول ﷺ: [لا يجري لأحدٍ إلّا جرى عليه، ولا يجري عليه إلّا جرى له][2].

فإنّه لا يوجد أحدٌ فوق الحقّ، أو بأعلى من أنْ يُجرى عليه. والناس يتكافؤون في وجوه الحقّ، فكما يأخذ أحدهم حقّه ولا يُبخس منه شيئاً، كذلك لو كان عليه الحقّ، فيؤخذ منه.

وهذه هي العدالة الحقّة التي لا مواربة فيها ولا تمييز.

كقوله ﷺ: [إنّ من أحبّ عباد الله إليه... قد ألزم نفسه العدل... يصف الحقّ ويعمل به][3].

وقوله ﷺ: [إنّ أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحقّ أحبَّ إليه ـ وإنْ نَقَصه وكَرَثَهُ ـ من الباطل وإنْ جرَّ إليه وزاده][4].

---

(١) من نفس الخطبة، الصفحة (٤٤٩).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) مأخوذ من خطبة لأمير المؤمنين ﷺ، رقم (٨٦)، الصفحة (١٧٩) وما تلاها.

(٤) من كلام لأمير المؤمنين ﷺ، في التحكيم، رقم (١٢٣)، الصفحة (٢٧٠، ٢٧١)، نهج البلاغة.

كرئه: اشتدّ عليه وبلغ منه المشقّة، فإنّ الحزن بالحقّ مسرّة لديه، والمسرّة بالباطل عاقبتها الغمّ الدائم.

ربيع العدل:

يجري على ألسن العظماء والمصلحين ما يعتلج في نفوسهم، وما يعتقدونه ويصوّبونه من الآراء. وتتحدّد قيمة هذه الآراء من قيمة المفاهيم والدروس التي تطرحها، ودرجة التفاعل معها، والأثر الذي تتركه في النفوس، وما تعوذ من نتائج في الإصلاح والتربية. ولو قارنا كتاب نهج البلاغة مع كثير من الكتب والآثار الفكرية، للمسنا من قريب تميّز هذا الأثر الكبير عن سائره في العطاء، وتفوّقه على غيره بدرجاتٍ بعيدة في فحوى المباحث، وروح المناهج، واستحقاق الثناء. فإذا وجدنا في غيره بصيص ضياء، ففيه ضياعات وشموس. وإن شعرنا في سواه هبّة نسيم في حرٍّ قائظ، فهو الربيع الدائم.

وفي مجال البحث في ثقافة النزاهة ومحاربة الفساد، ومُسامات المدارس التربوية، والمناهج الإصلاحية، وتنقيب مسالك العمل الاجتماعي، فإنّك تجد بغيتك، وتهتدي إلى ضالتك، في طروحات نهج البلاغة.

وفيما ذكرناه وما نذكره لاحقاً من أقوال وحِكَم وخطب الإمام عليه السلام فيما يخصّ موضوع الإصلاح عموماً، نقطف أزهاراً من ربيع هذا الأثر المعرفي الخالد، ينعش بها الفكر، وترتوي منها القلوب، حيث لها في كل غاية عَلَمٌ مُشرع، وآثارها في نفوس المريدين واضحة، والعقل في قبولها والإقناع بها أسرع.

● في عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر، عند تكليفه بولاية مصر، يقول عليه السلام: [وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة، والمحبّة لهم، واللطف

بهم. . . فإنّهم صنفان إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا نظيرٌ لك في الخلق][1].

أي اجعل الرحمة من قلبك كالشعار له، وهو الثوب الملاصق للجسد. فالرعية: إما من نفس دينك، فهو أخ لك من ناحية الدين، أو إنسان مثلك، فيقتضي الطبع البشري أنْ تشعر معه بالرحمة والميول إليه. وهو من أعلى وأرفع مبادىء حقوق الإنسان، والمساواة، دون النظر إلى التمايز أو الأَثَرة ولأيّ سبب أو غاية. فالحقّ وإجراء العدل يستحقه الجميع برابط الإنسانية الذي يربط الجميع.

● يقول عليه السلام: [إنّ أفضل عباد الله، عند الله، إمام عادل][2]. يحقق إرادة الله في إجراء العدل، وإنصاف الخلق، وينفّذ أمر الله بذلك، وهو القائل سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[3].

ثم يقول عليه السلام: [وإنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامةُ العدل في البلاد][4]. فإن استقام العدل، انتظمت أمور الناس، وهدأت شكاياتهم، وانصرفوا لأعمالهم وشؤونهم، وفي ذلك صلاح البلاد، وقرّة عين الولاة.

ويقول عليه السلام: [وبالسيرة العادلة يُقهر المناوىء][5].

---

(١) من العهد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٧٢)، نهج البلاغة.

(٢) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٦٢)، الصفحة (٣٣١)، نهج البلاغة.

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٥).

(٤) من العهد الذي أرسله أمير المؤمنين إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٨٠)، نهج البلاغة.

(٥) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٢٥)، الصفحة (٦٧٥)، نهج البلاغة.

وهو المخالف، أو المعاند بكلّ أشكاله، فإنّ السيرة إذا كانت عادلة تنتفي الحاجة للمخالفة أو العناد أو الاعتراض. وإنْ حصل فسيجد من يقف بوجهه ويردعه ويمنعه، حفاظاً على مكاسب السيرة العادلة، فتصبح سلاحاً بوجه المصاعب والمتاعب إنْ وجدت.

ويقول أيضاً: [من تعدّى الحقّ ضاق مذهبُه][1].

وأراد بمذهبه هنا: طريقته، وهذه من الاستعارة، ومعناها: أنّ طريق الحقّ لا مشقّة فيها لسالكها، بعكس الباطل فيها المشقّة والمضار. وسالك الباطل كسالك طريقة ضيقة يتعثّر فيها، ويتخبّط في سلوكها.

يقول عليه السلام، في كتاب أرسله إلى عامله على آذربيجان: [وإنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك أمانة، وأنت مسترعًى لمن فوقك، ليس لك أنْ تفتاتَ «أي تستبد» في رعيّة، ولا تُخاطر إلّا بوثيقة][2].

الطعمة: المأكلة، يقال فلان خبيث الطعمة، أي رديء الكسب. عملك أمانة في عنقك للناس الذين تعمل لخدمتهم.

وأنت مسترعًى: أي يرعاك ويراقبك المسؤول الذي هو فوقك، فليس لك أن تستبدّ في الناس أو تظلمهم، أو تقصّر في حقّهم. ولا تخاطر وتقدم على أمرٍ مخوف فيما يتعلق بالمال الذي تتولّاه، أو سائر أعمالك، إلّا أن تتوثق، أي تحتاط للأمر، أنْ تقع في الخطأ، أو تأتي بما يوجب محاسبتك.

وهذا الكتاب نموذج لعشرات الكتب التي كان يرسلها إلى عمّاله،

---

(١) من وصية لأمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام، رقم (٢٦٩)، الصفحة (٥٤٢)، نهج البلاغة.

(٢) من كتاب أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إلى عامله على آذربيجان، رقم (٢٤٣)، الصفحة (٤٩٤)، نهج البلاغة.

وأصحاب الولايات، توضّح مدى اهتمامه ورقابته ومتابعته إليهم، وتحذيره لهم من ارتكاب الأخطاء، أو الإخلال في أداء الأمانة، ويُرشد من يحتاج للإرشاد إلى العمل بالنزاهة، وقوانين إجراء العدل وإبلاغ الحقوق.

وبعض ما يصف «الإمام الحق» قوله: [ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع][1].

والمقاطع: الحدود، وهو ما ينتهي الحقّ إليه. أي لا تصل الحقوق إلى أربابها، لأجل ما أُخذ من الرشوة عليها. ذلك ما للرشوة من أثر في ضياع الحقوق، وفساد المجتمع.

وفي الحديث المرفوع: ما من قومٍ يظهر فيهم الرشا إلّا أُخذوا بالرعب.

وأختم هذا الجزء بنفحة طيبة من هدي صحابة رسول الله ﷺ، الذين ربّاهم القرآن، وعلّمهم النبي ﷺ، حتى صاروا قدوة وملاذاً لكل طالب دليلٍ أو هداية.

روى الربيع بن زياد، قال: قدمت على عمر بمالٍ من البحرين، فصلّيت معه العشاء ثم سلّمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: ويحك! إنّما قدمت بخمسين ألفاً، قلت: بل خمسمائة ألف. قال: أطيّبٌ هو؟ قلت: نعم، لا أعلم إلّا ذلك، واستشار الصحابة فيه، فأُشير عليه بنصب الديوان فنُصب، وقسّم المال بين المسلمين، ففضلت عنده فضلة، فجمع المهاجرين والأنصار، وفيهم علي بن أبي طالب، وقال للناس: ما ترون فيما فضل من المال؟ فقال

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين ﷺ، رقم (١٢٩)، الصفحة (٢٧٩)، نهج البلاغة.

الناس: يا أمير المؤمنين، إنّا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلك وعملك، فهو لك. فالتفت إلى عليّ فقال: ما تقول أنت؟ قال: قد أشاروا عليك، قال: فقل أنت، فقال له: لم تجعل يقينك ظنّاً؟ فلم يفهم عمر قوله، فقال: لتخرجنّ ممّا قلت، قال: أجل والله، لأخرجنّ منه، أتذكر حين بعثك رسول الله ﷺ ساعياً، فأتيت العباس بن عبدالمطلب، فمنعك صدقته، فكان بينكما شيء، فجئتما إليّ وقلتما: انطلق معنا إلى رسول الله ﷺ، فجئنا إليه، فوجدناه خاثراً[1] فرجعنا، ثم غدونا عليه، فوجدناه طيّب النفس، فأخبرته بالذي صنع العباس، فقال لك: يا عمر، أما علمت أنّ عمّ الرجل صنوُ أبيه! فذكرنا له ما رأينا، من خُثوره في اليوم الأول، وطيب نفسه في اليوم الثاني، فقال إنكم أتيتم في اليوم الأول، وقد بقي عندي من مال الصدقة ديناران، فكان ما رأيتم خثوري لذلك، وأتيتم في اليوم الثاني وقد وجّهتهما، فذاك الذي رأيتم من طيب نفسي. أشير عليك ألّا تأخذ من هذا الفضل شيئاً، وأنْ تفضّه على فقراء المسلمين، فقال عمر: صدقت والله لأشكرنّ لك الأولى والأخيرة[2].

---

(١) خاثر النفس: ثقيلها، غير طيّب ولا نشيط، لسان العرب.

(٢) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، الجزء (١٢)، الصفحة (٢٤٢، ٢٤٣).

مدرسة الطمع

من يقدر أن يُبرىء نفسه من الطمع فيُقرض في الكلام عنه وعن أهله، دون أن يعنيه الكلام هو مثل غيره!

وهل يوجد في الدنيا من لا يحبّ الدنيا؟ وإذا كان حب الدنيا ـ والناس أبناؤها ـ من الأمور التي ينطبق عليها وصف الطمع، فهل يُلام المرء على حب أمّه[1]؟ والشاعر يقول:

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها ‍ ‍ ‍ ‍ وما كنتَ منه فهو شيءٌ محبّبُ

وهل يُطلب من المرء ـ حتى لا يقع في شَرَكِ الطمع ـ أن يكون زاهداً منقطعاً، مكتفياً فيما يُقيم صلبه ويعينه على استمرار حياته، فلا يجدّ أو يجتهد، أو يعمل وينجح في عمله ويطوّر نفسه، ويأخذ من الدنيا ما يريد؟ أمْ يكتفي بقناعته، ورضاه بما في يديه، ولا يكترث بما في أيدي الآخرين؟ فيكون بذلك قد رضي عن نفسه، وخرج من خطّة الطامعين، وتبرّأ من الانتماء إليهم.

إنّ من خلق الطامع أنّه لا يُنظّر لما هو فيه، ولا يدعو له، حتى لا يشاركه غيره فيما هو فيه، ويظنّ أنّ الدنيا خلقت له وحده، وليس للآخرين سهمٌ فيها.

---

(١) من الكلام المنسوب إلى علي ﷺ: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام الرجل على حبّ أمّه. في الحكمة رقم (٣٠٥)، الصفحة (٦٩٦)، نهج البلاغة.

فهو يحيا في عالم منغلق، يأخذ ما يحب وما يجد، ولا يدع ما لا يحب أو ما لا يجده.

يتخيّل أنّه سيّد نفسه ومن حوله، وهو قابعٌ في رقٍّ مؤبّد[١].

ويحسب عقله راجحاً، وعقله مصروع تحت بروق مطامعه[٢].

يقول الشاعر:

وإيّاك والأطماع إنّ عودها رقارِقُ آلٍ أو بوارقُ خُلَّبِ

ويتوهّم أنّه يحترم نفسه، وهو من أزرى بها[٣].

ويقول: إنّي قويٌّ عزيز، وهو موثقٌ بوثاق الذلّ[٤] ويرى أنه في منعة وحصانة وأمان، ومطايا الطمع توجف به مناهل الهلكة[٥].

ويظنّ أنّ طمعه ضامن له، وما هو إلّا وارد هُلْكٍ لم يصدر عنه[٦].

وهو يعتقد أنّه أدرك من الدنيا ما يريد، وربما كان هلاكه فيما أدرك منها[٧].

---

(١) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٨٠)، الصفحة (٦٦٧)، في نهج البلاغة، قوله: «الطمع رقٌّ مؤبّد».

(٢) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٢٠)، الصفحة (٦٧٤)، قوله: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

(٣) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢)، الصفحة (٦٢٧)، قوله: «أزرى بنفسه (أي احتقرها) من استشعر الطمع (أي تبطنه وتخلّق به)».

(٤) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٢٧)، نهج البلاغة (٦٧٥)، قوله: «الطامع في وثاق الذّل».

(٥) من وصيته للإمام الحسن عليه السلام، الصفحة (٥٣٨)، قوله: «وإيّاك أن توجف (أي تُسرع) بك مطايا الطمع، فتوردك مناهل الهلكة».

(٦) من حكمه عليه السلام جزء من الحكمة رقم (٢٧٧)، الصفحة (٦٩٠)، قوله: «إنّ الطمع موردٌ غير مصدر، وضامنٌ غير وفي».

(٧) من وصيته لولده الحسن عليه السلام، الصفحة (٥٤٢)، قوله: «قد يكون اليأس إدراكاً، إذا كان الطمع هلاكاً».

وإذا كان الطمع يعني الاستزادة من الشيء، فهو لا يعني أنّ كلّ طلب للاستزادة مرفوض ومنكر. بل إنّ منها ما هو راجحٌ وفيه المعروف. كالطمع في رحمة الله وغفرانه، وثوابه وجنّته، ومن آياته بنزول المطر، وما إلى ذلك.

والملفت للنظر أنّ «جذر الطمع»، ذكر في القرآن الكريم اثنا عشر مرّة، وجميعها في المباح وفيما لا يُنكر، سوى آيةٍ واحدة، والآيات الإحدى عشرة هي:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[1].

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ (أيها المؤمنون) ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ (أي اليهود) (وقد كان فريق منهم) (أحبارهم) ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2].

﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[3].

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾[4].

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾[5].

﴿وَمَهَّدتُّ﴾ (بسطت) ﴿له﴾ (من العيش والعمر والولد) ﴿تَمْهِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (لا أزيده على ذلك)[6].

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ (الجنّة) ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (في دخولها)[7].

---

(١) سورة الشعراء، الآية (٨٢).

(٢) سورة البقرة، الآية (٧٥).

(٣) سورة المائدة، الآية (٨٤).

(٤) سورة الشعراء، الآية (٥١).

(٥) سورة المعارج، الآية (٣٨).

(٦) سورة المدثر، الآيتان (١٤، ١٥).

(٧) سورة الأعراف، الآية (٤٦).

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا﴾ (من عقابه) ﴿وَطَمَعًا﴾ (في جنّته)[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ (من الصواعق) ﴿وَطَمَعًا﴾ (في المطر)[2].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ (من الصواعق) ﴿وَطَمَعًا﴾ (في المطر)[3].

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ (من ناره) (في جنته)[4].

فقط جاء في الآية (٣٢)، من سورة الأحزاب: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، وهو فقدانه قوّة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء.

وكان ورود كلمة «الطمع» في هذه الآية فقط في حالته السلبية، خلافاً لسائر الآيات السابقة.

على هذا لا يكون الطمع منكراً بالمطلق. فكما في الفتنة، كونها لفظٌ مشترك، فتارة تطلق على البليّة والمصيبة، تقول: فُتن زيدٌ إذا أصابته مصيبة في مالٍ أو فقدان ولد أو غير ذلك. وتارة تطلق على العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[5]، أي عذّبوهم.

ومرّة على الإمتحان والاختبار، تقول: فتنتُ الذهب، إذا أدخلته النار لتعلم جودته. وتارة تطلق على الإحراق، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٦).

(٢) سورة الرعد، الآية (١٢).

(٣) سورة الروم، الآية (٢٤).

(٤) سورة السجدة، الآية (١٦).

(٥) سورة البروج، الآية (١٠).

ﭐلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[1] أي يُحرقون. وتطلق أيضاً على الضّلال، يقال: رجل فاتن أي مضلّ عن الحقّ. قال تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ (أي بمضلّين) ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[2].

فلو كان التعوّذ من الفتنة يُراد بها البليّة أو الإحراق أو الضّلال أو العذاب، فلا بأس. ولكن من أراد بها الامتحان أو الاختبار فغير جائز، لأنّ الله أعلم بالمصلحة وله أنْ يختبر عباده، لا ليعلم حالهم، فهو عالم بكلّ شيء، ولكن ليعلم عباده حال بعضهم البعض.

لهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [لا يقولن أحدكم: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، لأنّه ليس أحدٌ إلّا وهو مشتمل عليها، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن. فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[3]. ومعنى ذلك أنّه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد، ليتبيّن الساخط لرزقه، والراضي بقسْمِه، وإنْ كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب][4].

لهذا أيضاً فإنّ الغايات والإرادات هي التي تحدد الطمع المنكر من غيره. فما الضير من طمع الإنسان في نزول المطر، وحلول الخير، أو طمعه برحمة الله وغفرانه وعفوه وجنّته! فالمدار إذاً في قدرة النفس من انتزاع الشرور منها، كما يقتلع صاحب الزرع النبت السّيئ والخبيث من بين زرعه. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الذاريات، الآية (١٣).

(٢) سورة الصافات، الآيتان (١٦٢، ١٦٣).

(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٨).

(٤) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٩٣)، الصفحة (٦٤٥)، نهج البلاغة.

(٥) سورة الأعراف، الآية (٥٨).

والآية تقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (تربته عذبة) ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ (حسناً) ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ (ترابه) ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ (نباته) ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ (عسراً في مشقّة)[1].

وهذان مثلان: للمؤمن يسمع الموعظة وينتفع بها، وللكافر، أصم لا يسمع. فالأرض لها جنس واحد، إلّا أنّ منها عذبة خصبة تلين بالمطر، فتخرج نباتاً حسناً. ومنها سبخة، وإن سقط عليها المطر فلا تنبت، وإذا أنبتت، فهو ممّا لا يُنتفع فيه. كذلك قلوب الناس، منشؤها من لحم ودم، فمنها تلين للوعظ وتقبله، ومنها قاسٍ لا يقبل الوعظ.

أو ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ (مطر) ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ (ما ظهر من الزرع) ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ (الناشيء عنه) ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ (ييبس) ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ (تذروه الرياح)[2].

ومن الآيات البيّنات أمثالٌ تُضرب للموعظة، وهي للقلوب دليل. يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ (صيّر) ﴿لَهُم﴾ (يا محمد) ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ (نبت بذلك الماء نباتٌ التفَّ بعضه ببعض، يروق حسناً ونضارة) ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[3].

فإنّ التغيّر والتبدّل في أحوال الدنيا، كانقلاب وتغيّر هذا النبات، فالنبات الحسن يروق ما خالطه ذلك الماء، فإذا انقطع عنه عاد هشيماً متفتّتاً لا نفع فيه.

والإنسان إذا ما أراد أنْ يطمع في شيء، ويحب أنْ يستزيد منه،

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٨).

(٢) سورة الحديد، الآية (٢٠).

(٣) سورة الكهف، الآية (٤٥).

فلتكن استزادته وطمعه في شيء ثابت ودائم، لا كالريح الهشيم. وليكن نافعاً مفيداً، لا يبساً حطاماً أو طيّباً حسناً، لا خبيثاً نكداً.

وكلّ هشيم أو حطام أو خبيث، فهو إلى زوال، وعاقبته إلى ندامة وحسرة. وذلك مدعاة إلى أن يُكره ويُنفر منه. وكلّ ثابت ونافع وطيّب، فهو إلى بقاء، وعاقبته خير ونعيم. وذلك مدعاة إلى أن يُرغب فيه، ويُتقرّب إليه.

فربَّ طلبٍ جرَّ إلى حَرَبٍ، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام[1]: «وما خيرُ خيرٍ لا يُنالُ إلّا بشر، ويُسرٍ لا يُنالُ إلّا بعسر»[2].

فأيُّ خيرٍ في شيءٍ سمّاه الناس خيراً، وهو مما لا يُنال إلّا بالشر. فإنْ كان الطريق إليه شرّاً، فمن أين يكون خيراً؟ وإنّ الخوف من العسر والحاجة، يدفع للرذائل، فلو جعل الرذيل وسيلةً للحصول على اليسر (أي السعة والمكسب)، فما الفائدة منه، وهو لا يحميه من النقيصة، وقد وقع أول الأمر فيما يهرب منه.

---

(١) من وصية لأمير المؤمنين عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام، الصفحة (٥٣٧)، نهج البلاغة. والحَرَب بالتحريك: يعني سلب المال.

(٢) من وصية لأمير المؤمنين عليه السلام، للإمام الحسن عليه السلام، الصفحة (٥٣٨)، نهج البلاغة.



مدرسة القناعة

كلُّ مُقْتَصَرٍ عليه كافٍ[1].

إنّ من اقتصر على شيءٍ، وقنعت به نفسه فقد كفاه، واستغنى به عن الفضول التي يرغب فيها المترفون. والإنسان يرغب في أشياء ويُريد أشياء. فإذا لم ينل الكثير منها، يتحمّل الهموم لذلك، والشعور بالخيبة والحرمان وانشغال البال. فهو يضيف بذلك خسارة إلى ما يظنّه من خسارته بفوت ما كان يأمله، وعمد إدراك ما كان يريده.

ولو أنّه لم يحمل همّاً لذلك، ولم يبالِ للدهر، ولا يكترث بما يعكس عليه من غرضه، ويحرمه من أمله، ويهون ما لم يكن فيما أراده وتمنّاه وقنع كيف كان وعلى أيّ حالٍ هو فيه، فقد غلب وانتصر، بإراحته نفسه من عناء الهمّ والشعور بالغبن أو الخسارة. وجاوز ما لم يستطيعه إلى ما يستطيعه ويقدر عليه. على رأي الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيعُ

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [إذا لم يكن ما تريد فلا تُبَلْ ما كنت][2].

---

(١) في القصار من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٩٣)، الصفحة (٧١٦)، نهج البلاغة.

(٢) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٦٩)، الصفحة (٦٤٠)، نهج البلاغة.

ذلك الذي عجز عن مراده، ثمّ رضي بالحال الذي كان.

وقريبٌ منه قوله ﷺ: [لا تسأل عمّا لم يكن ففي الذي كان لك شغل][1].

أي لا تتمنَّ من الأمور بعيدها، وكفاك من قريبها ما يُشغلك.

ومن هذا الباب قول أبي الطيّب:

خُذْ ما تراهُ ودَعْ شيئاً سمعتَ به   في طلعةِ البدر ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

وقد كان بعض الحكماء يقول: حدُّ القناعة هو الرضا بما دون الكفاية، والزهد: الاقتصار على الزهيد (أي القليل)، وهما متقاربان. وفي الأغلب يكون الزهد رفض الأمور الدنيوية مع القدرة عليها. أمّا القناعة: فهو إلزام النفس الصبر عن المشتهيات التي لا يقدر عليها. وكل زهدٍ حصل عن قناعة فهو تزهّد، وليس بزهد.

ولو أراد الإنسان أنْ يكون زاهداً، فهو بحاجة إلى قدع نفسه، وتخصيصها بالقناعة أوّلاً.

والقناعة في حقيقتها هي الغنى، لأنّ الناس كلهم فقراء من جهتين:

الأولى: لافتقارهم إلى الله سبحانه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[3].

والثانية: لكثرة حاجات الناس وتعددها، وما في سدّها كلّها مطمع. فمن سدّها بالاستغناء عنها، سوى الضروريّ منها، فهو الغني.

---

(١) من حكم أمير المؤمنين ﷺ، رقم (٣٦٣)، الصفحة (٧٠٧)، نهج البلاغة.

(٢) سورة فاطر، الآية (١٥).

(٣) سورة محمد، الآية (٣٨).

يقول عليه السلام: [ولا كنز أغنى من القناعة][1].

وقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام، عن قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[2]، قال: هي القناعة[3].

وقال عليه السلام: [كفى بالقناعة مُلكاً][4].

وقال: [القناعة مالٌ لا ينفد][5]، وقد روي هذا الكلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله.

وكان يُقال: الناس رجلان: واجدٌ لا يكتفي، وطالبٌ لا يجد. وقد أخذه الشاعر فقال:

وما الناس إلّا واجدٌ غيرُ قانعٍ بأرزاقه أو طالبٌ غيرُ واجدِ

إنّ الطبيعة البشرية مجبولة على حبّ الازدياد. وإنّما يقهرها أهل التوفيق، وأصحاب الإرادات والعزائم، فتنشأ منها قناعة تملأ القلوب والعيون غنًى.

لا أنْ يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين. إنْ أُعطي منها لم يشبع، وإنْ مُنع منها لم يقنع[6].

والدنيا دار عافية لمن فهم عنها[7]. وهي متجر يُكتسب فيه:

---

(١) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٦٩)، الصفحة (٧٠٩، ٧١٠)، نهج البلاغة.
(٢) سورة النحل، الآية (٩٧).
(٣) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٣١)، الصفحة (٦٧٦)، نهج البلاغة.
(٤) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٣٠)، الصفحة (٦٧٦)، نهج البلاغة.
(٥) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٥٧)، الصفحة (٦٣٩)، نهج البلاغة.
(٦) في القصار من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سأله رجل أن يعظه، الصفحة (٦٦٢)، نهج البلاغة.
(٧) من حكمه عليه السلام، وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا، رقم (١٣٢)، الصفحة (٦٥٦).

الرحمة والعافية والجنّة. وقد جاء عن النبيّ ﷺ قوله: الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقّها بورك له فيها[1].

وما من غضاضة على المرء في حبّه للدنيا، وسعيه فيها، وتزوّده منها، وإنّما خُلقت لذلك. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [إنّ الدنيا دار صدقٍ لمن صَدَقَها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنًى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنّة][2].

ما أجمعه وأجمله من كلام، ورب قائل يقول: وهذا الكلام في مدح الدنيا، مع أنّ سائر كلامه في ذمّها! يقول ابن أبي الحديد في شرحه للنهج في الجزء (١٨)، الصفحة (٣٤٨): «وهو يُنبي عن اقتداره عليه السلام على ما يريد من المعاني، لأنّ كلامه كلّه في ذمّ الدنيا، وهو الآن يمدحها، وهو صادقٌ في ذاك وفي هذا».

الدنيا دار عافية وصدق وغنًى لمن فهم عنها، وبركة لمن أخذها بحقّها. يقول الشاعر:

إذا استغنيت عن شيءٍ فدعه　　وخذ ما أنت محتاجٌ إليه

فإذا كانت الدنيا كذلك، فلم الإصرار على صرفها لغير غاياتها، وتصريفها بخلاف طرقها! ونحن بذلك نُسيء إلى أنفسنا قبل الإساءة إليها.

---

(١) أخرجه بالشطر الأول، مسلم والترمذي في كتاب الفتن (٢١٩١). وأحمد في مسنده، وبالشطر الثاني: ابن حبان في صحيحه (٢٨٩٢) والطبراني في الأوسط (٨٣٥٩).

(٢) في القصار من كلماته عليه السلام، رقم (١٣٢)، الصفحة (٦٥٦)، نهج البلاغة.

قال الحسن لرجل: إن استطعت ألّا تسيء إلى أحدٍ ممن تحبّه فافعل، قال الرجل: يا أبا سعيد، أوَ يُسيءُ المرء إلى من يُحبّه؟ قال: نعم، نفسك أحبُّ النفوس إليك، فإذا عصيت الله فقد أسأت إليها.

وقال أيضاً: يابن آدم، إنّما أنت أيامٌ مجموعة، كلّما ذهب يومٌ ذهب بعضك.

يقول أبو العتاهية:

أرى المرءَ وثّاباً على كلِّ فرصةٍ ... وللمرءِ يوماً لا محالةَ مصرعُ
يُنازلُ ما لا يملكُ الملكَ غيرُه ... متى تنقّضي حاجات منْ ليس يشبعُ
وأيُّ امرئٍ في غايةٍ ليس نفسه ... إلى غايةٍ أخرى سِواها تطلَّعُ

وقال أحدهم: فلله آثاركم! قدّموا بعضاً يكن لكم، ولا تؤخروا كلًّا فيكون عليكم.

ولأبي العتاهية أيضاً:

سَلِ الأيامَ عن أُممٍ تقضَّتْ ... ستُخبرُكَ المعالمُ والرسومُ
ترومُ الخلدَ في دارِ التَّفاني ... وكمْ قد رامَ قبلكَ ما ترومُ
تنامُ ولم تَنَمْ عنكَ المنايا ... تنبَّهْ للمنيَّةِ يا نؤومُ
إلى ديّانِ يومِ الدِّين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ



الفساد الإداري وأسبابه

عند تناول موضوع النزاهة، يلزم أولاً معرفة أسباب الفساد لتسهل سبل العلاج، أو الحدّ من شراسة الفساد، وحصر مساحات الضرر، أو تقليل الخسائر الحاصلة منه.

ولا يُظنّ أنّ الخسائر ـ في حال استشراء الفساد ـ تكون محصورة في جهة دون أخرى، أو أنّ لآثارها مدة محدودة، بل ستمتد إلى زمن أبعد ومدى أكبر، وهي تخصُّ المجتمع بكلّ مفاصله ولا تستثني منه أحد. وإنّ الإهمال أو التأخر عن معالجة الفساد وآثاره، والتلكؤ في التعامل معه، من أكبر أسباب الفشل والخروج عن السيطرة والإرباك، وربّما حصول الإحباط واليأس.

ليس صعباً أنْ يتعرّف كلّ أحدٍ على أسباب الفساد الإداري وغياب النزاهة، ذلك أنّ هذه الحالة معاشة، والإحساس بها ليس ببعيد، فالناس في مجتمعاتنا يشاهدون حالات الفساد ويشخصونها باستمرار، إنْ لم يكن يومياً، وهم يلاحظون آثارها في أنفسهم وأحوالهم المعيشية ووضعهم الاجتماعي، ويلمسونها في جميع مفردات حياتهم. ويشاهدون أيضاً آثارها في مفردات حياة المفسدين.

ولم يكن أحدٌ في المجتمع ـ إلّا ما ندر ـ بمنأى عن المسؤولية فيما يحدث من فساد أو سوء إدارة أو غياب نزاهة.

ويحكم تواجد الفرد في المجتمع، هو مسؤول بدرجة أو بأخرى عن تشخيص هذه الحالات ووضع اليد عليها وبيانها مهما كانت النتائج. ومن أسوء وأخطر الأمور السكوت أو عدم المبالاة أو الخوف أو الاتّكال وعدم الشعور بالمسؤولية، أو حتى التأخير في الرفض والشجب والامتعاض والاعتراض على أيّ تصرّف يقوم به المسؤول، مهما كان صغير، وفيه علامة من فساد. ومهما تكن درجة هذا المسؤول.

والفرد في المجتمع المنفتح ـ ولو بعض الشيء ـ ديمقراطيّاً، له أثر مهم في وصول المسؤول إلى مراتب المسؤولية، لهذا عليه أولاً حسن الاختيار والتنقيب قبل الاختيار، أو الاعتماد على أصحاب الرأي والتجربة في اختياره، ووضع مصلحة المجتمع نصب عينه قبل المصالح المحدودة: شخصية كانت أو حزبية أو مذهبية أو فئوية، أو أيٍّ من هذه التسميات.

ولا يُظنّ أنّ المجتمع خال من عناصر البناء أو الأيادي النظيفة، فذلك من الإجحاف ومجاذبة الواقع، فالظروف السياسية والصراعات الحزبية وأمور أخرى أبعدت هؤلاء عن مواقع المسؤولية وحجّمت أدوارهم، ليتفرّد عناصر الفساد في النفوذ ويمعنوا بالفساد، لتمكّنهم على أدوات الفساد وعناوين سوء الإدارة.

ومن الملفت للنظر والمثير للاستغراب، مع وجود مقوّمات الاختيار كالانتخابات ومنظمات المجتمع المدني ووجود درجات لا بأس بها من مفاهيم الديمقراطية في مجتمعنا، وزوال حاجز الخوف، وتطوّر الإعلام وانتشار وسائل التثقيف التي كانت غائبة تقريباً، نجد رغم ذلك البعض يقع وفي أكثر من مرّة في مطبّ سوء الاختيار وعدم الوصول إلى مدارك المعرفة في ثقافة الانتخاب. ولا يُبرّىء المواطن أنّه خارج من

تجربة قاسية يسمّيها «الدكتاتورية» أو القيود، وما إلى ذلك. فالفترة الزمنية كافية لشعب ذي حضارات عريقة أنَّه يتحسّس الصح من الخطأ، ويهتدي الطريق الموصل إلى الأهداف.

إنّ الكثير يقع في مستنقع الولاءات: الحزبية أو المذهبيّة، أو الفئوية، التي أريد له أن يقع فيها، كي لا يُحسن الاختيار ويُصحّح ما فسد، ويضع قدمه على أوّل طريق الإصلاح والبناء والتقدم.

إنّ مرض الفساد الإداري وغياب النزاهة في النفس، حالة تربوية تعود إلى مقومات تلك النفس واستعدادها.

وهي ليست عائدة إلى دين أو مذهب أو فئة أو تنظيم، بل هو ما تعلّمته تلك النفس وما لم تتعلّمه، ما تربَّت به أو جبلت عليه وما تعودته.

وليس الحرمان، وليس الانتماء أو الاعتقاد أو الوضع الاجتماعي والعائلي، وليس قساوة التجربة أو الفشل، وليس الطمع والتسابق واستغلال الفرص، ولا قلّة الكفاءة وضعف المعرفة، ولا غياب التوجيه والنصح والإرشاد... ليس كلّ ذلك ولوحده يدفع الإنسان إلى الفساد ويبعده عن ثقافة النزاهة. فهذه بعض الأسباب، وربّما تكون من مقدماتها، إلّا أنّ هناك من الأسباب ما هو أشدّ تأثيراً وأبعد أثراً.

قبل كل شيء لا يمكن تجاوز تأثيرات المحتل، وما زرعه متعمداً من أسباب إفساد المجتمع وانحلاله، وتحويل مقوماته إلى خراب. وخلق السبل لتمزيق أركانه وتفريق أطيافه، بإثارة نعرات الفئوية والمذهب والدين والعنصر، تلك المفردات المقيتة التي وجدت لها أذهان جاهزة وعقول التقطتها بسرعة، وصارت من أساسيات اهتماماتها وأولوياتها. وأهملت الأهم في تغليب المصلحة العامة وإشاعة مفاهيم التعاون

والتعايش السلمي على أساس النظرة الواحدة للجميع، بجمعهم مصلحة وبناء الأرض التي يعيش عليها الجميع.

والملفت للنظر أنّ شَرَك المحتل، وقع فيه حتى من يعتقد نفسه من النخبة المثقفة، أو يرى حاله في مقدمة الصفوف.

بينما يُفترض في هؤلاء أنْ يكونوا أوّل المتنبّهين لهذا الخطر، والحذر من الوقوع فيه، ويكونوا قدوة لغيرهم باعتبار فارق الثقافة والمعرفة. ولكنّ العكس هو الذي حصل، فقد نجد من بسطاء الناس من تنبّه للخطر ونأى بنفسه عنه.

فنجد الكثير منهم أبعد حاله عن مزالق السياسة، واختار الانعزال والانغلاق على الذات، وإنْ كان هذا من الخطأ، لأنّه فسح الطريق وسهّل مهمّة المستغلّين وأصحاب الغايات الغير سامية للوصول إلى تلك الغايات وحصولهم على ما يبغون.

وآخر ساعد على استشراء الفساد بقصدٍ أو دون قصد، ذلك بانسياقه وراء قادته دون أدنى مبادرة من رأي أو مشورة أو انتقاد أو ممانعة. بل إن البعض كان عون للفساد وجزء منه أو معرفته بحالات الفساد ويقوم بتبريرها وإيجاد الأعذار لمرتكبيها، فيكون محامياً بالمجّان للمفسد ومدافعاً عنه.

ومن دواعي الاستغراب عزوف الإعلام عن إظهار حالات الفساد وإبرازها للناس وتوضيح أسبابها - إلّا ما ندر - باعتبار أولى رسالات الإعلام وأهمّها مكافحة الفساد والمفسدين والعمل على بناء المجتمع الصالح القويم. مع افتراض خروج الإعلام من عنق الزجاجة وتحرره من التحجيم والتقييد والترهيب، والانعتاق إلى إعلامٍ حرٍّ متقدم، والعمل بالرسالة الإعلامية السامية والنبيلة. وإنْ وجدت مبادرات إعلامية في هذا

المجال، فهي مبادرات فقيرة لا ترمى إلى مستوى الحالة التي يعيشها مجتمعنا من انتشار حالات الفساد وكثرة المفسدين.

ومع ما يُفترض من تعطّش الإعلام بعد تحرره من قيوده، ليبادر في أنْ يكون في الصدارة بعملية الإصلاح والبناء، نرى الكثير من أدوات إعلامنا تبنّت مهمّة الدعايات الحزبية والحروب الإعلامية الانتخابية وإشاعة ثقافة التسقيط والإشهار لغايات الكسب الحزبي أو الفئوي، وأصبح ذلك شعاراً لها وهدفاً تنطلق منه في مجال عملها، وأهملت مهمتها الرئيسية والمعوّل القيام بها.

ومن أسباب نشوء الفساد، ضعف الرقابة أو انعدامها، ما يفسح المجال أمام المفسدين. وإنْ وجدت الرقابة فهي دون المستوى المطلوب مع غياب المحاسبة أو ضعفها بما لا يتناسب وحجم الجريمة، وفشل الإدارة الرقابية أو فسادها هي أيضاً. وسوء الإدارة القضائية أو عدم أمانتها، وهذا من أشدّ وأصعب الحالات المساعدة على نمو الفساد وانتشاره.

إنّ توسّع الانفتاح السياسي، وكثرة وجود العناوين السياسية أو الفئوية، أوجد الحاجة للمساومات والترضيات والمحاصصة المذهبية أو الحزبية، وكان له أثر بالغ في تعميق حالات الفساد وخلقه في بعض الأحيان.

وقد دفعت المحاصصة البعض على التنازل عن مبادئه والتنصّل عن شعاراته إرضاءً للآخرين، ولتهدئة المواقف مع القوى السياسية المناوئة الأخرى، للبقاء في السلطة والمراكز المتقدمة فترة أطول. وبالمقابل فإنّ هذه القوى المناوئة تجتهد في المناورة والاعتراض والمشاكسة، من أجل إفشال وإفساد أيّ مشروع غير المشروع الذي تتبنّاه هي لتقليل فترة

ابتعادها عن مركز المسؤولية وتسريع الوصول إليه. والضحية الوحيدة بين هذا وذاك، المواطن العادي والوطن والمجتمع والإنسان.

ولا يخلو الموقف من أيادي لاعبة في الخفاء، وحتى في العلن تعمل على إرساء دعائم هذا الخلاف وتوسيعه وإفشاء ثقافة الفرقة والنزاع والتخالف، بدل ثقافة الحوار والوحدة والتآلف. ترسيخ روح الأنا والذات والطمع والرغبة، بدل العمل سويّة من أجل تحقيق الأهداف السامية في البناء والتقدم، ليتسنّى لهذه القوى والأيادي العبث في المقدرات والحصول على المكاسب، والوصول للغايات من خلال الشرخ الحاصل بين القوى السياسيّة، والتلاعب بهذه القوى كيف شاءت ومتى شاءت.

ثمّ إنّ ضعف التجربة وغياب الثقافات الاجتماعية والأكاديمية والأسرية، وحتى الدينية، أثر آخر في شيوع الفساد وتهيئة أسبابه. فالتجربة مهمّة في إعداد الكوادر وتدريب العناصر وإصدار القوانين وتشريع الأنظمة وتثبيت دعائم الحكم وتهيئة أدواته بين العاملين في الدولة، ليكونوا مهيّئين للعمل وجاهزين لأداء المسؤولية، لا كالضرير الذي يقود الأعمى في الدرب المظلم. وبغياب التجربة وضعف المعرفة، يقوى احتمال الوقوع بالأخطاء والاستمرار على تلك الأخطاء، وشيوع الفساد وتردّي الحالة لأدنى المستويات.

وفي هذا المجال، إنّ غياب القدوة من الأمور الفاعلة في إرساء دعائم الفساد الاجتماعي والإداري.

والقدوة أمرٌ مهمٌ في المجتمع. فلو كان من يُفترض أن يكون قدوة قد انغمس في الفساد وأباح لنفسه ما حرّمته عليه مكارم الأخلاق والأمانة وقداسة المسؤولية. فذاك ما يُبكى عليه دماً بدل الدموع، وما لا

يُرجى صلاحه وما يبعث على الأسى واليأس ويدعو إلى الفشل بل الموت والخرب. خصوصاً لو كانت القدوة المفترضة من أهل الشعارات الدينية أو المذهبية أو الحزبية والمؤثرة في عامة الناس. لا لأجل إيصال مفاهيم هذه الشعارات وتطبيقها في الواقع، بل لأجل استغفال الناس واتّخاذهم أدوات لتحقيق أغراضهم ووسائل للوصول إلى غاياتهم.

ثمّ إنّ للمؤسسة الدينية في مجتمع مثل مجتمعنا، أثرٌ بالغ وأساسي في النفوس، لأنّه يحاكي الضمير والوجدان والقلب. فبدل أن يكون لهذه المؤسسات الدور الجوهري في نشر وتعميق مفاهيم العدل والنزاهة والأمانة، نجد أنّ أكثر فعالياتها اتّجهت في منحاً آخر، وكان جلّ اهتمامها بالأمور الفئوية الضيقة، وأهملت ما هو أكثر ضرورة في التربية والبناء والإرشاد. فالناس ليسوا بعيدين عن ممارساتهم المذهبية أو الموسمية، وهم في تفاعل مستمر وتعايش مع هذه الشعائر والممارسات. وبحاجة إلى تقويم وتهذيب هذه الشعائر، لا إلى زيادتها بالكمّ وإهمال الفائدة. هم بحاجة إلى الإرشاد والتوجيه ووضع المناهج التربوية الخلّاقة وإعداد الكوادر المثقفة الواعية المتعلمة، لا الوعّاظ الخائبين. الناس بحاجة إلى مواجهة القيادات الدينية والسماع إليهم والتفاعل معهم. لا إلى العلاقة المنقطعة إلّا ما كان من وراء الحجب وبعض الإعلانات والقليل من الكتب. هم بأمس الحاجة للقاء النخبة والتعرّف من قريب على آرائهم ورؤية آثارهم.

أنْ يسمعوا منهم، لا أنّ يسمعوا عنهم. أنْ يُحاكوهم لا أنْ يتحاكوا عنهم. أنْ يعتمدوا عليهم أكثر من اعتمادهم على ممثليهم أو المتحدّثين بأسمائهم. أنْ يسعون إلى الناس لا أن تسعى الناس إليهم. هذه هي رسالتهم ومن أجلها وجدوا وعليها اعتمدهم الناس واعتقدوا بهم.

وإذا كان بوسع المواطن العادي أنْ يُعذَر لسكوته عن الخطأ ومسايرته الوضع الفاسد ليُجنّب نفسه وأهله المصاعب والمتاعب. فما هو عذر رجل الدين في أمرٍ كهذا؟

وما وجوده، وهو لا يحارب الفساد والمفسدين، ولا يدافع عن المظلومين، أو يحارب الظلم والظالمين؟

وأيّ عذرٍ أيضاً للنخبة المثقفة من أدباء وشعراء ومفكّرين في سكوتهم أو عدم المبادرة في اتّخاذ المواقف المسؤولة بوجه الفساد وصنّاع الفساد. حتى لا يكون لأحد منهم شاغل سوى هذا الواجب، ولا دافع للنطق بكلمة واحدة، والمجتمع تأكله جرثومة الفساد وتنخر في جسده وتهوي به إلى مدارك الهلاك وهوّة الانحطاط السحيقة. فما بالك بنخبة محسوبة على الثقافة، وقد استهوتها الشعارات الحزبية أو الفئوية، فما أنْ أسرعوا إلى الانخراط في هذه المتاهات، وتركوا ما تعاهدوا عليه من المهام لأداء رسالاتهم التي هي أساس وجودهم في خدمة الإنسان، ودورهم في البناء ومحاربة الفساد.

التحدّيات

إنّ طريق الوصول إلى مجتمعٍ نزيه خالٍ من الفساد، والمفسدين ليس بالطريق السهل، ولا هو مفروش بالورود. إنما هو طريق صعب بسبب صعوبة المهمة وخطورتها.

والتحديات فيه كثيرة وكبيرة ومتعلقة بمفاصل الحياة المختلفة من قريبٍ أو من بعيد.

إنّ مسؤولية الإصلاح الاجتماعي، وخصوصاً في حالة إصلاح الفساد الإداري ونشر ثقافة النزاهة، مسؤولية شاملة لا يُعفى منها أيّ أحد. ويكاد يكون مرض الفساد الإداري من عديد الأمراض التي تحتاج إلى علاجاتٍ جماعية وجهد جماعي، والاستمرارية في العمل وعدم التسويف والمماطلة والتأخير في الجهد الإصلاحي وتقديم التضحيات والصبر وتوقّع حدوث المفاجآت.

ولكلّ عمل تحدّيات.. والتحديات تكون بحجم العمل وأهميته وخطورته. والتحديات في موضوع محاربة الفساد كثيرة لا يسعنا إحاطتها بالكلية، إنّما نشير إلى بعضها مما نعتقد في أهميته وارتباطه بالموضوع من قريب.

أ ـ مخلّفات الماضي:

لا يُنكر أنّ الحاضر كما هو أبو المستقبل، فهو ابن الماضي.

وماضي أيّ شيء له تأثيره، ولا يمكن إهمال هذا التأثير، إنّ مجتمعاتنا العربية عموماً، والمجتمع العراقي على وجه الخصوص، عاشت تاريخاً وماضياً صعباً وفي غاية الصعوبة والمشاكل والأشواك. فقد عاثت فيها سياسات المستعمر وخربت ما خربت وعبثت فيه، حتى أوصلته إلى ما هو عليه من التخلف والفقر والمرض والتمزق.

ولسنا هنا في سبيل بحث جرائم المستعمر وجعله شمّاعة نعلّق عليها أخطاءنا. وهل هذا المستعمر هو الوحيد الذي صنع الخراب أو التمزيق والتخلّف؟

أم أنّ هناك من أعانه وسهّل له السبل إلى ما أراد؟ بل وابتكر دونه الأفعال في التخريب وجاوز ما لم يجرؤ عليه ذلك المستعمر أو يجسر فيه. وهل أنّ الشعوب التي طردت هذا المستعمر وأبعدته عن بلادها وظنّت أنها زاحت خطره، استراحت من مكائده؟ أم أنّ وجوده قائم في كل حين وفي كل مكان من بلداننا، ولكن بأيدٍ «وطنية» وسواعد «عربية». وهل أنّ المناهج التي كان بحاجة إليها في فترة وجوده في بلادنا عفا عليها الزمن وانتهت؟ أم تحولت إلى مناهج بنفس المفاهيم والطرح والغايات، لكنّها بأسماءٍ جديدة وشعارات برّاقة، يوظّفها أصحابها لخدمة الأسياد بالدرجة الأولى، ثمّ تمرير سياسات وأجندات بعيدة كل البعد عن الناس وأحلامهم ومتطلباتهم وتطلعاتهم. ومن بعد ذلك تخدم مصالح فئوية، حتى لو أضرّت بالوطن والمواطن.

نحن نعلم أنّ الوطن العربي بأغلب أقطاره غنيٌّ بالنفط والثروات، والغرب لا يتركونه أبداً. وهذه الثروات بدل أنْ تكون عامل سعادة الإنسان، صارت سبباً في تعاسته وبؤسه وحرمانه. فبدل أنْ تُستغل هذه الثروة في مجالات تطوير البناء والتعليم والصحة والزراعة والصناعة

والثقافة والخدمات، وسائر المعارف والعلوم، كانت أدوات بيد الحكّام لشراء السلاح وشنّ الحروب وخلق النزاعات، أو مادة للترف المبتذل وإشاعة الفساد. والاتّكال على موارد النفط وترك أساسيات البناء الاقتصادي وجهل قواعد ومرتكزات ذلك البناء، وإهمال إعداد البنى التحتية وإنشاء الأسس القوية الراسخة والسليمة لاقتصادٍ عربي شامل متكامل ومتكافل، والاعتماد على النفس وترك الاعتماد الكلّي على الغير، والسير في دروب التصنيع والتصدير لا الاستيراد والاستهلاك. النظر إلى المستقبل، لا الاعتماد على الحاضر فقط.

لا يوجد مجتمع كالمجتمع العربي يعتمد كلياً في غذائه على منافذ الاستيراد، ولا يلجأ للاكتفاء الذاتي من موارده الزراعية والإنتاجية المحلية، مع توفر مستلزمات النجاح: من تربة وماء وأموال وأيادي عاملة وخبرات. بل إنّ الكثير من الحكومات باتت تُدخل سياساتها في محاربة الإنتاج المحلي والقطاع الخاص، إنْ كان زراعياً أو صناعياً، وتلجؤ إلى الاستيراد لأقلّ المواد أهميّة، إمعاناً في التخريب وتمريراً للسياسات وإنْ حدثت مشكلة كالمجاعة أو الجفاف أو ضعف الموارد أو الكوارث البيئيّة، ومثيل ذلك، تجد تلك الحكومات عاجزة في معالجة أيٍّ من هذه المشاكل أو إيجاد السبل لمواجهتها أو تقليل أضرارها. ذلك لعجزها وعدم استعدادها وتخلّفها عن وضع الخطط والدراسات وإعداد المناهج العلمية، وعدم التحسّب لكلّ طارىء.

وليس هذا موضوع بحثنا، ولكن اقتضت الحاجة إلى الإشارة إليه باختصار.

إنّ آثار ثقافات الماضي لا زالت قائمة، وستبقى ما بقي الحال على ما هو عليه رغم حصول بعض التغيرات المهمّة في المجتمع

العربي، من ثورات وانتفاضات فاجأت الكثيرين، إلّا أنّها لم تفاجىء الواقع. لأنّ ما حصل كان لا بدّ له أنْ يحدث، وسيكون ما لا يتوقه البعض من تغيّرات جذرية وجوهرية في هذا المجتمع على يد الإنسان العربي.

إنّ الفساد والإفساد وخصوصاً في مراكز القوى والسلطات استشرى وأصبح في حال لا يمكن السكوت عليه، يضاف إليه ما في الإنسان العربي من حرمان وعوز بسبب سياسات الحكّام الجائرة والغير منصفة.

إنّ البعض من الحكّام يعملون على تسفيه شعوبهم وتجهيلهم وتخديرهم. وجعل الإنسان العربي يركن إلى الدعة والسكون والسكوت وعدم المطالبة بالحقوق. الحاكم يريد من شعبه أنْ يكون أعمى لا يرى، كي لا ينظر مشاهد الترف المفرط والبذخ المبتذل. ويريده أصم لا يسمع، حتى لا تصل إليه الأرقام المذهلة لأرصدته في البنوك. ويريده أخرس لا ينبس ببنت شفة أو يتكلّم بحرف من حروف الهجاء التي قد تترتب فتصبح كلمة أو جزء من كلمة تُزعج مزاجه أو تُقلق راحته.

ويريده عاجز لا يتحرك فلا يرفع يده أو يطالب بشيء أو يمشي إلى غاية لا تنسجم وما يريده هو.

لقد عملت رواسب الماضي عملها في العقل العربي وفعلت من التخريب والتدمير وتشويه الأفكار ما فعلت. فصار ذلك العقل لا يفكر إلّا في ساعته وأسباب بقائه وسبل معيشته. فهو لا ينظر أبعد من مجال خياله، خوفاً من الحاضر والمستقبل. وزُرعت فيه حالات اليأس والإحباط، وأصبح غاية أمله الحصول على منفذ يخرجه من واقعه، ليستبدل به واقعاً آخر، حتى إذا اضطر إلى الهروب. هو يبحث عن فرصة تبعده عن الحرمان أو الموت.

إنّ الإنسان العربي بحاجة ماسّة إلى فرصة تعيد الثقة به، وقبلها تعيد ثقته في نفسه وتمنحه الأمل في التخلص من قيوده والنهوض إلى الأمام.

وما نهضة الشعوب العربية أخيراً، إلّا دليل على أنّ الفرصة قائمة والأمل موجود، والمهم من يستغل الفرصة ويتسلّح بالأمل. ويقدم إلى العمل بعد أنْ ينفض غبار الماضي، ويكسر قيوده ويتجاوز حدود ذلك الماضي ويثبت أنّه جدير باحترام وتقدير الآخرين، ويعبّر بالفعل والعمل عن شعاراته في ماضيه ومجده الذي طالما ردّده وافتخر به.

ب ـ تحديات الذات:

إنّ للإنسان حاجات ضرورية في الحياة، ومع تطور أساليب لمعيشة وزيادة متطلباتها، ازدادت وتيرة هذه الحاجيات وأصبح الحصول عليها لكثير من الناس صعباً ومضنياً، وربما مستحيلاً. وهنا يكون التحدي الكبير واستعداد نفس الإنسان وقابليته على التحمّل والصبر والرضا. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل أنّ الحاجة تبيح لمن لا قدرة له على تحقيقها، الأخذ بالوسائل المنحرفة للحصول عليها؟ أم يتسلح بالصبر والثبات على مبادئه وأخلاقه وحصانة نفسه من الانزلاق والخطأ؟ أو ماذا يعمل؟

إنّ الإجابة على مثل هذه الأسئلة لا تكون مقنعة وذات فائدة، إلّا إذا جاءت من نفس الإنسان الممتحن بها. فيسأل نفسه: ما يمكن أن أربحه لو استخدمت وسائل لا تُرضي ذاتي ولا تُقنع وجداني وحصلت على منيتي؟ وما هي الخسارة لو فقدت احترامي لنفسي وثقتي بها؟ أو كيف أكون وأنا أرى وأسمع وأحسّ نظرات الاحتقار والامتعاض من المجتمع لما أقدمت عليه؟

وبعد تقييم الربح والخسارة، والاستدلال على النتائج المحتملة، سيصل إلى القرار الصحيح بأسرع ما يكون.

إنّ تحديات الذات كثيرة ولا يمكن حصرها بعجالة، ولكن من المهم الإشارة إليها في هذا الموضوع، فمحاربة الفساد ونشر ثقافة النزاهة في أول الأمر وآخره متعلق بالذات البشرية. وبدرجة صلاح الذات يكون تسلّحها بثوابت المعرفة. وتقويم النفس وتربيتها وإصلاحها، من أهم أسباب النجاح في محاربة الفساد. وذلك متعلق بكثير من الأمور والتحديات التي بمعالجتها نصل إلى صلاح النفس وتصحيح مسارها.

جـ ـ البطالة:

البطالة مرض جرثومته تنخر في جسد المجتمع وتسلب قواه وتحيله إلى جسد خاوٍ لا فائدة ولا أمل فيه. إنّ فئة الشباب هم العصب المحرّك لعجلة التقدم والرقيّ والازدهار. فإذا ما عُطّلت هذه الطاقة، ولم توظّف في مجالها المفترض، تكون العواقب وخيمة والأضرار مؤثرة في عموم المجتمع وكيانه. وما من كيان أو دولة تُبنى بمعزل عن سواعد أبنائها وقدراتهم وإمكاناتهم، ولا يمكن أن تتطور وتسلك طريق الرقيّ، وقادتها بعيدين عن معالجة ظاهرة البطالة، أو لم يعيروا هذه المشكلة الحقيقية الاهتمام اللازم واعتبارها من أولويات أعمالهم ومساعيهم ومسؤولياتهم.

لن يكون تأثير البطالة مقتصر على العاطلين عن العمل، ولكن يمتد هذا التأثير لأبعد من ذلك، فيشمل مرافق كثيرة في المجتمع، وتتعمق سلبيات هذا التأثير حتى يصبح خطره حقيقي يهدد كيان المجتمع ووجوده.

والبطالة من دوافع ظهور الفساد وتعميقه وترسيخه، ومعالجتها

تصبُّ في معالجة الفساد، والأثر الإيجابي لمعالجة البطالة سيكون واضح في عملية الإصلاح والبناء ونشر ثقافة النزاهة.

د ـ عدم لعدالة في توزيع الثروات:

إنّ عدم العدالة في التوزيع من الوسائل القديمة التي لجأ إليها الحكّام لإخضاع شعوبهم واستحواذ خيراتهم واستغلالهم.

والأَثَرة في التوزيع من سوء الإدارة والغبن الذي يبعث على المقت، ويؤدي لأبشع النتائج. وله آثار سلبية آنية ومستقبلية لا يسهل إزالتها، ومع مرور الوقت تتحوّل هذه الآثار إلى أزمات حقيقية. فبعد أنْ تتعمّق الفوارق الطبقية، وتتجذّر الهوّة بين الطبقات، يتحول الحال إلى صراع وتسابق على المادة وتكالب للحاق بركب هذا التمايز، ما يدفع بشدة على الفساد والانحراف وارتكاب الأخطاء.

إنّ سوء الإدارة في أدوات الحكم، يدفع إلى تبذير المال العام وتصريفه في غير غاياته. فبدل توجيهه لإنجاز المشاريع وتحقيق النهوض الاقتصادي واستحداث الخطط وإعادة البنى الأساسية وتطوير المرافق العامة والخدمات وتشغيل الأيدي العاطلة واستثمار القدرات الخلّاقة وإشراك الجميع في عملية البناء والتعمير والنهوض. بدل هذا نلاحظ أنّ المال يُصرف في الترف والبذخ والاستهلاك، أو يُهدر في مشاريع فاشلة، أو غير مجدية أو مشاريع وهميّة. وفتح فرص الهدر والتبذير والإتلاف بلا وازع أو رادع، ذلك لغياب الخطط والدراسات الاقتصادية وانشغال الكلّ بالصراعات السياسية والهموم الفئوية أو الحزبية، وإهمال مشاكل وهموم الناس وعدم السعي لإيجاد الحلول والاهتمام بهذه المشاكل والهموم.

يقول أمير المؤمنين ﷺ: [فانصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا

لحوائجهم، فإنّكم خزّان الرعية، ووكلاء الأمّة، وسفراء الأئمّة][1] وهذه إحدى وصاياه إلى عماله على الخراج. وفي عهده إلى مالك الأشتر يقول: [وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم][2].

والناس كلهم عيالٌ على الخراج. فلم تكن الغاية من جمع المال أو تحصيل الضرائب أو ما يسمى بالناتج القومي للبلاد، إتخام خزينة الدولة وإشباع العاملين عليها، وإنّما لتوزيعه بالعدل وصرفه في محالّه الصحيحة ووجوهه الحقّة.

كُتب على خاتم أنوشِروان: لا يكونُ عمرانٌ، حيث يجور السلطان.

هـ ـ الاختيار:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام، في بعض ما جاء في عهده إلى مالك الأشتر: [ثمّ اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة... ولا تُشرف نفسه على طمع][3].

الإشراف على الشيء: الاطّلاع عليه من فوق. فالطمع من سافلات الأمور، من نظر إليه وهو في أعلى منزلة النزاهة لحقته وصمة النقيصة، فما ظنّك بمن هبط إليه وتناوله!

---

(١) من كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، إلى عماله على الخراج، رقم (٢٨٩)، الصفحة (٥٦٩)، نهج البلاغة.

(٢) في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٨٣، ٥٨٤)، نهج البلاغة.

(٣) في الصفحة (٥٨١، ٥٨٢) من نهج البلاغة.

ثم يقول عليه السلام: [ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختياراً، ولا تولّهم محاباةً وأثَرَة، فإنّهما جُماعٌ من شُعَب الجور والخيانة][1]. أنْ يكون تعيين الولاة والعمال والوظائف، بالاختبار والامتحان، لا بالأهواء أو الأثرة، فذاك من الظلم ومن الخيانة.

[وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء، من أهل البيوتات الصالحة... فإنّهم أكرم أخلاقاً... وأقلُّ في المطامع إشراقاً][2].

ليكن اختيارك من أهل التجربة والحيء، ومن البيوتات الصالحة، لكرم أخلاقهم. وإشراقاً: أي ظهوراً أو حضوراً. لا أنّ تكون تولية المناصب والمسؤوليات بالأَثَرة أو المحسوبيّة أو الانتماء أو الولاءات أو المحاصصة. دون النظر إلى الكفاءة والاختصاص والأحقية، فتضيع الحقوق وتسوء الإدارة ويتأخر الإنتاج، مع ما يلحق أهل الخبرات والمستحقّين من غبن وظلم وتهميش.

ويقول عليه السلام: [ثمّ إنّ للوالي خاصّة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلّة إنصاف في معاملة، فاحسم مادّة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال][3].

خاصة المسؤول وبطانته، هم الصورة التي من خلالها ينظر الناس إلى المسؤول، فإذا حسنوا حسنت الصورة وإذا أساءوا كانوا وبالاً على المسؤول وعلى الناس. وفي الأرجح يكون فيهم استئثار وتطاول وقلّة إنصاف في معاملتهم للآخرين، استقواءاً برؤسئهم. لهذا فالإمام يوصي بقطع أسباب تلك الأحوال، وذلك بعدم تمكينهم من ظلم الناس بمنحهم

---

(١) من عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر، رقم الصفحة (٥٨٣)، نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، الصفحة (٥٩١)، نهج البلاغة.

الصلاحيات المفرطة، ودفع شرورهم ومحاسبتهم على صغائر تجاوزاتهم فضلاً عن كبائرها، ومراقبتهم في عملهم وتعهّد الأمور المهمّة أو الحساسة بنفسه دون الاتّكال كليّاً على الخاصة أو البطانة أو المعاونين، والأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرّف في شؤون العامّة.

إشارات إصلاحيّة

إنّ الكثير من الدول المتقدمة في مجال العدالة الاجتماعية، والتي بلغت مراحل متطورة من الحضارة والتقدم والازدهار واحترام حقوق الإنسان، لم تصل إلى ما وصلت إليه بالقوة أو السلاح، إنّما هو نتاج خطط إصلاحية وبرامج تربوية، استغرقت الكثير من الجهد والوقت. واشترك في ذلك الجميع، كي تثمر تلك الجهود إلى ما وصلوا إليه. وأدركوا حالة التوازن والتناغم مع الإصلاح، وصولاً لجني ثماره في الرقيّ والتقدم والرفاه.

لقد أصبح الإصلاح الذي سعوا لأجل تحقيقه نمطاً حياتياً اعتادوا عليه ودافعوا عنه وحرسوا أنْ لا يفقدوه، فتمسكوا به واستمتعوا بجنيه وثماره.

ومن قراءة لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، في إحدى خطبه والذي يقول فيه: [فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزَّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن (أي على وجوهها)، فصلح بذلك الزمن، وطُمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء][1].

وهو ما جرى في المجتمعات التي ذكرناها، والتي جنت ما جنت من الخير والصلاح.

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٥٠)، نهج البلاغة.

ثمّ يقول عليه السلام: [وإذا غلبت الرعيّة واليها، وأجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال (أي ما يُفسد)، وتُركت محاجّ السنن (أي أوساط طرقها)، فعُمل بالهوى، وعطّلت الأحكام، وكثرت علل النفوس][1].

وهذا ما ينطبق على مجتمعات كثيرة، في مقدمتها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، مع أننا أحقّ من غيرنا وأجدر أنْ نسير على المنهج المضروب مثله في قول الإمام الأول لقربنا من هذا المنهج والتساقنا به ومعرفتنا له أكثر من غيرنا.

إنّ الموظف أو المسؤول مطلوب منه حسن الأداء والعمل بآليات الصلاح والبناء والقيام بواجبه في تلبية حاجات الناس وتحقيق راحتهم. مع أن أكثر هذه الحاجات مما لا مؤنة فيها عليه من شكاة مظلمة أو طلب إنصافٍ في معاملة[2].

وبمثل هذا التوجيه من الإمام عليه السلام نصل إلى أدوات التوازن في العلاقة بين المواطن والمسؤول، واعتماد الطرق السليمة في التعامل وتجنّب الوقوع في الأخطاء وحدوث المفاسد، وصولاً لتحقيق الأهداف.

وفي تفسيره عليه السلام للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[3]. قال: [العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضّل][4].

---

(١) نفس المصدر السابق، الصفحة (٤٥١، ٤٥٢).

(٢) مقتبسة من عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٩٠، ٥٩١)، نهج البلاغة.

(٣) سورة النحل، الآية (٩٠).

(٤) في القصار من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٣٣)، الصفحة (٦٧٦)، نهج البلاغة.

فإنْ تعدل، فذاك ما يُطلب منك... وإنْ تعدل وتُحسن، فذاك إنصاف وتفضّل، ومن المروءة ومكارم الخلق.

مردوده أكبر وعاقبته أجل.

العدل:

وصف أمير المؤمنين عليه السلام العدل بالإنصاف. ونحن عندما نتطرق لمفهوم العدل لأهميّته وارتباطه مع ثقافة النزاهة ومحاربة الفساد. وهل الإنصاف إلّا إحقاق الحقّ ودفع المظالم عن الخلق وإجراء العدل في المجتمع وتثبيت أركانه؟ ومن الثابت أنّ المجتمعات باختلاف مذاهبها، لا تحيا أو تنشط وتتقدم إلّا بالعدل وفي ظلّه. ولأجل إقرار العدل والحفاظ عليه، لا بدّ من وجود العوامل المؤدية إلى ذلك واكتمال المعادلة فيه.

إنّ العوامل الخلّاقة في إقرار العدل وتحقيقه كثيرة ومتشعبة، ولكن من أهمّها وأكثرها تأثيراً وباختصار:

أ ـ إيمان الحاكم أو المسؤول بالعدالة والعمل على التطبيق من خلال صلاحياته المناطة إليه بحكم سلطته أو مسؤوليته.

ب ـ إيمان الأفراد بحقهم في العدالة والدفاع عنها ومناهضة من يحاول سلبهم هذا الحق.

جـ ـ تثقيف النفوس وتعويدها على ممارسة العدل وزرع ثقافته فيها.

د ـ وجود القوة الرادعة التي تقف بوجه الظلم والظالم وتوقفه عن ممارسة ظلمه أو التمادي فيه، لأنّ الظالم نادراً ما ينتصح أو يرتدع من نفسه.

هـ ـ وجود الدساتير والقوانين والتشريعات التي من خلالها وتحت ضوابطها يتم تقييم العدل وإجرائه.

إنّ من الصعب بمكان في مجتمعات كمجتمعاتنا فيها ما فيها من المواريث والأخطاء والرواسب أنْ نحصل على العدل المطلق، أو الوصول لدرجة الامتياز فيه. ولكنّ عملية إدراك السبل والوسائل المؤدية للإمساك وبأول الخيط والاهتداء إلى الطريق في مهمة إعداد وبناء ثقافة العدل والنزاهة وترسيخها في النفوس والمثابرة والاستعداد للخطوات التالية، وعدم إهمال الوقت والأسباب والعوامل والثوابت الهادية إلى النجاح. سيكون له الأثر المنتج ولو بعد حين.

نعم إنّ المطلوب من الموظف أو المسؤول أو صاحب القرار، العدل والإنصاف فيما يتصل بحاجات الناس وخدماتهم وهمومهم ورغباتهم. ولكي نكون واقعيين ولا نسرح في الخيال أو الأمنيات، فليس المطلوب من المسؤول أو صاحب القرار أن يكون صورة طبق الأصل من علي بن أبي طالب أو عمر بن الخطاب أو عمر بن عبدالعزيز، وأمير المؤمنين يقول: [ألا وإنّكم لا تقدرن على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد][1].

ولكن ليس صعباً التعامل مع مبدأ العدل والإنصاف وأداء الأمانة والنزاهة بالاجتهاد في فهم هذه الثوابت واستيعابها بالورع والعفّة ووضوح الرأي.

وفي سياسة الإمام العدلية، ترويض وتدريب للنفس، حتى تكون مهيئة للإدارة وإنجاز المهمات بالوجه الصحيح، بعيداً عن الفساد والظلم والتخريب والاستغلال.

---

(١) من كتاب لأمير المؤمنين ﷺ، إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف، رقم (٢٨٣)، الصفحة (٥٥٩)، نهج البلاغة.

ومن دروس النفس الترويضية، تعويدها على الصدق في العمل ونبذ المناورة في التعامل، كإطلاق المبررات الخاطئة لبعض الأعمال أو المراوغة والتسويف أو المماطلة، ما يدفع أصحاب الحاجات إلى اللجوء لاستخدام الوسائل الأخرى لإنجاز طلباتهم، مثل الرشوة أو التوسط أو غيرهما فصاحب الحاجة أعمى لا يرى إلّا قضاها. أو الكذب على المواطن والاحتجاج بالروتين وأساليبه الملتوية والجائرة أحياناً ودفع المواطن لارتكاب الأخطاء بالمقابل وسلوك الطرق الملتوية أحياناً. فالإنسان العادي لا يقوى على إدراك الجزئيات والالتزام بها والوقوف عند حدودها.

يقول عليه السلام: سياسة النفس أفضل سياسة.

ما يطلب الإدراك والمعرفة في التعامل مع الناس واستخدام اللياقة والشفافية معهم، وصولاً للتوافق بين المسؤول والمواطن. بالمقابل فإنّ المواطن مطلوب منه أن لا يطلب المستحيل ويقنع بالمعقول، خصوصاً في فترة الإصلاح الانتقالية وعند أولى خطوات بناء المجتمع وتطويره. ويحاول أنْ يكون عوناً في عملية البناء والإصلاح، لا حجر عثرة أو أداة العوامل الفشل والإحباط.

إنّ الموظف أو المسؤول على كل حال، هو من عامّة الناس وينتمي إليهم، فهو ابن المجتمع وأحد عناصره ومقومات بقائه. فيفترض أن يكون حريصاً على مجتمعه ويعمل للحفاظ على مصالح أبناء جلدته ويسعى إلى راحتهم وسعادتهم، فيفرحه ما يفرحهم ويسوؤه ما يسوؤهم.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: أعجبُ من الرجل، يكون من القوم، كيف له قلبٌ يقسو عليهم!

وهو عندما يمارس أي ظلم أو فساد، إنّما هو يُفري جلده ويظلم نفسه. والتبعة لازمة له ومحسوبة عليه.

الطبقات:

إنّ من ضرورات الحياة وديمومتها ودوران عجلة العمل والخدمات، تنوّع الطبقات في المجامع. ولا يقوم المجتمع إلّا بالتعاون وتبادل الأدوار وتعدّد الأعمال، وإلّا لكان الناس كلهم صنف واحد، وانتفت الأدوار الخدمية بين الناس. وعند ذلك يقوم الفرد بتلبية جميع أموره بنفسه، وهذا من المستحيل.

ومن المؤكّد وجود التفاوت بين تلك الطبقات بالقدرة والفكر والاستعداد، فلا بدّ لها من رابط ينظم العلاقة فيما بينها، ليكون التوازن والانسجام مع بعضها.

وبالإضافة إلى أنّ عملية التنظيم، وظيفة إدارية فهي بحاجة إلى تشريع القوانين ووضع الأنظمة وسنّ الدساتير وغيرها من الأمور الضرورية. والدولة هي التي تقوم بهذه المهمة، وكيف ما يكون صلاح الدولة بمؤسساتها، فذلك ينعكس بالإيجاب على عموم طبقات المجتمع ويؤثر في سلوكيّات الأفراد.

ولكلّ دولة مَنْ يُدير شؤونها، متمثلة بالحكومة المنتخبة أو المعيَّنة، ولهذه الحكومة برنامج وخطة عمل أو خارطة طريق، ونجاح عمل الحكومة مرتبط بالمباشر مع صلاح برنامجها وملائمته للواقع الاجتماعي وقدرته على تلبية حاجات الأفراد وتحقيق طموحاتهم، مع العمل بالخطط المستقبلية للنهوض بالمجتمع والبلاد عموماً. فلو كان اختيار الحكومة من صميم واقع المواطنين وتبعاً لقناعاتهم كما هو حاصل في المجتمعات الديمقراطية، فسيكون بالتأكيد البرنامج الحكومي منبثق من تطلعات المواطن ورغباته، وسيحقق طموحاته. ولكن في حال غياب الديمقراطية وغياب ثقافة الاختيار، لا يكون للمواطن أدنى صلة في

الحكومة واختيارها أو في برنامجها أو خططها. ولهذا فإنّ هذه البرامج أو الخطط ستكون بعيدة عن طموحاته وقناعاته واحتياجه. وهي تحقق بالدرجة الأولى طموحات فئة محدودة، هي الفئة التي شكّلت هذه الحكومة ومن يدور في فلكها أو ينضوي تحت عباءتها. وذلك عكس ما يحصل في المجتمعات الديمقراطية.

إنّ على الجميع أنْ يدركوا أنّ الناس هم مادّة الحكم. والحكّام جزءٌ من هذه المادة، فإذا لم يُشرك صاحب السهم الأوفر في إدارة المجتمع، واقتصرت المشاركة على الجزء الأقل، سيكون الأمر منحصر بتطلعات وقناعات الأقليّة، وحرمان أو تهميش أو ظلم الأكثريّة.

وعلى هذا تتحقق مصالح الأقلية على حساب مصلحة البلد والمواطنين عموماً، وهو من الإجحاف وعدم الإنصاف وضياع الحقوق.

وعند استمرار الحال وتكريسه، من الممكن حصول الاعتراضات بعد أنْ ينفد صبر الناس، وتتطور هذه الاعتراضات لتتحول إلى صدامات وعنف، ما يعمل على التسريع في تفجير الثورات. وليس هذا من وحي التخمين والتوقّعات، إنّما حصل ذلك في بعض مجتمعاتنا العربية، وحتى في المجتمعات المحكومة بالنار والحديد، والتي مورس معها أشدّ وأفظع أساليب العنف والترهيب والقتل. والتي كانت فاقدة لأدنى حقوق المواطنة والعيش الكريم، والقابعة في آخر مراتب الأمم، مع ما بها من حرمان ومرض وعوز.

فكانت ردّة الفعل شديدة، بشدّة الظلم الذي مورس معها. والصدمة عاصفة قوية، بقوّة أسبابها. بعد أن استنفدت الجماهير كل الوسائل والأسباب التي توصلها لأهدافها، بكسر قيود الجور والتسلّط. وإنْ تأخرت كثيراً ردّة فعل الإنسان العربي ضد من ظلمه وسلب حقوقه.

فهذا الإنسان له مقوّمات النهوض والعمل، وما ظهر منه في ردّة فعله ما يُبهر العقول ويثير الدهشة. فقد ظنّ الكثيرون أنّ هذا الإنسان لا أمل منه ولا رجاء، لطول مدة انصياعه وسكوته، فإذا به يظهر بأبهى صورة، ويقوم بأجلٍّ مقام. وما هذه النهضة إلّا نذيرٌ من النذر، وهي رسالة لجميع من تسمح له نفسه ممارسة الظلم وإحلال الفساد. والطريق مشرع أمام باقي الشعوب التي تكتوي بلهيب جور حكامها، وتأنُّ من الفقر والعوز والمرض، لتأخذ طريقها في النهوض، وتثبت جدارتها بالحياة والحرية والكرامة.

ولسان حال كل إنسان، المزارع في مزرعته والعامل في معمله والتاجر في متجره، والمعلم مع تلامذته، والمرأة مع إخوانها وكلّ فرد في المجتمع يتوق إلى أن يتنفس هواء الحرية، ويشمَّ رائحة الأمل. الجميع بلسان واحد، وتطلّع واحد: لا للفساد، لا للظلم، لا للأثَرة والاستغلال.

نعم للنزاهة والعدل والحق والبناء.

نعم للإصلاح. نعم للخير.

الرقيب الذاتي:

«إنّك لن يُتقبّل من عملك إلّا ما أخلصتَ فيه» لا يتحقق الإخلاص في العمل بالدرجة المثلى، فقط بالمراقبة أو المحاسبة أو تهيئة ظروف العمل الضرورية. إنّما للرقيب الذاتي ومحاسبة النفس أثرٌ بالغ فيه، والرقابة الذاتية تختلف من شخصٍ لآخر باختلاف الثقافات والتربية والأثر الاجتماعي. ولكن من المؤكّد أنّه لا توجد ذات بشرية لا تشعر بالخطأ وتميّزه عن الصواب، وهي مجبولة للإنحياز لجنسها والإيناس معه وعدم الرغبة في إلحاق الضرر به أو إلامه.

فالنفس في طبعها وفطرتها تكره الشرّ وتنفر منه، وتحبّ الخير وتأنس إليه. إنّما هي تتأثّر بما يُزرعُ فيها، وما تكتسبه وتتلقفه من محيطها، فتتخلّق بذلك وتتعوّد عليه، ثم لا تقدر على الانفلات مما اكتسبته، ويصبح ذلك جزء منها. وإذا ترك الحال كما هو من دون اللجوء إلى الوسائل الإصلاحية ومحاولة تصحيح الأخطاء وتقويم الاعوجاج ورفد النفس بالتوجيه والنصح والإرشاد، تتحول النفوس شيئاً فشيئاً ـ إن كان بالتطبّع أو العدوى أو التقليد ـ إلى حاضنات لتلك الأخلاقيات السلبية، ويصبح من الصعب الخلاص منها. ومن مستلزمات نجاح العمل، تفعيل الرقابة والمحاسبة والجزاء، ليكون رافداً مهماً لسير عملية الإصلاح نحو تحقيق أهدافها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم][1].

فإنّ عائد محاسبة النفس يفوق كل التوقعات، ويعطي من النتائج ما لا يعطيه شيء آخر، بعكس الغفلة التي تدفع النفس للزلل وارتكاب الأخطاء. والخوف من العواقب أمانٌ من الزلل والخطأ. والاعتبار بالمثلات والتّبصّر في الاعتبار وفهم المقاصد، ليحصل العلم، وعندها تنشط محاسبة النفس وتؤدي دورها.

يقول عليه السلام: [فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن... يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره][2].

وهو كلام جليل، وفيه من الحكمة والإرشاد دليل.

---

(١) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٠٩)، الصفحة (٦٧١)، نهج البلاغة.

(٢) في القصار من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٥٠)، الصفحة (٦٦٣)، نهج البلاغة.

فمن ينظر إلى أخطاء الناس ويطعن عليهم أخطاءهم ويتبع زلاتهم ولا يرضى هفواتهم، يجب عليه قبلها أن يحاسب نفسه أولاً ولا يداهنها ويزيّن لها الأخطاء. وأن يحكم عليها بمثل ما يحكم على الناس لنفسه.

يقول عليه السلام: [كفى أدباً لنفسك تجنبك ما كرهته لغيرك][1].

وفي وجوب تجنّب الإنسان ما يكرهه من غيره، قال بعض الحكماء: إذا أحببت أخلاق امرئٍ فكنْهُ، وإنْ أبغضتَها فلا تكنْهُ. وقد أخذ ذلك أحد الشعراء فقال:

إذا أعجبتك خصالُ امرئٍ ... فكُنْه يكنْ منكَ ما يُعجبُكْ
فليس على المجد والمكرمات ... إذا جئتَها حاجبٌ يحجبُكْ

وقال عليه السلام: [من رضي عن نفسه، كثر السّاخط عليه][2].

فالذي لا يحاسب نفسه، ويؤنّبها عند الخطأ، ويعتقد أنه لا يُخطيء، تكثر أخطاءه وتتفاقم فيكثر سخط الناس عليه. يقول الشاعر:

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عيبَ غيره ... ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خيرُ من تخفى عليه عيوبُه ... ويبدو له العيب الذي بأخيهِ

إنّ تأديب النفس وترويضها طريق لبنائها ونزع الخواطر الظلامية منها، ورفع الأفكار المفسدة عنها.

ومعلّمُ نفسه ومؤدّبها، أحقُّ بالإجلال والتقدير من معلم الناس ومؤدّبهم، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) في القصار من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٦٤)، الصفحة (٧٠٧)، نهج البلاغة.

(٢) من الحكمة رقم (٥)، الصفحة (٦٢٨)، من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة.

رابطنا مع نهج البلاغة

عُرف نهج البلاغة على أنّه منتخب خطب أمير المؤمنين عليه السلام، ورسائله ووصاياه وكلماته وحِكَمه. جمعها السيّد الشريف الرضي رحمه الله قبل ألف عام تقريباً.

ولم تكن هذه المجموعة التي وصل إليها الرضي، هي جميع كلام أمير المؤمنين الذي حفظه الناس منه ونقله عنه.

فصاحب «مروج الذهب»، المسعودي ذكر في الجزء الثاني من كتابه أكثر من أربعمائة وثمانون خطبة للإمام عليه السلام، في حين أن المذكور من الخطب في النهج لا يتجاوز نصف هذا العدد. والمهم أنّ الأمر لا يتعلق بالكمّ من كلامه عليه السلام، ولكن في حدود معرفتنا له. ففي زمن ليس بالبعيد لم تكن هذه المعرفة تتجاوز التنقيب عن الوعظ والإرشاد والدعاء، أو الفنون البلاغية والصور الإبداعية في علم الكلام وفصاحة اللسان.

أمّا الأسرار الخفية والمباحث الفكرية والمفاهيم المنطوية في كلامه، والروح والمحتوى في مدرسته، والمعارف والعلوم والمناهج المطروحة، فلم تحظى بالاهتمام والدراسة والمتابعة التي تستحقها. ولم تكن ـ ولزمن قريب ـ مكتشفة ومشار إليها بالملاحظة، إلّا في بعض المقامات والمواضع، وبما لا يرقى لمستوى الحاجة إلى تلك الدراسات. ورغم هذا التقصير مع نهج البلاغة، فلموافقة مفاهيمه لكثير

من الظروف التي نعيشها وسلامة الحلول المطروحة في تلك المفاهيم لكثير من مشاكل المجتمع ووجود الحاجة إليه في مختلف المواقف والظروف، نجده يفرض نفسه أمام الأحداث ويدفع للإنتباه إليه لما فيه من الفوائد والمطالب والمقامات.

ففيه ضالّة كلّ باحث ومتتبّع، ودليل لكلّ مصلح أو صاحب رسالة، وبه إجابات لكثير من الأسئلة، وتوافق الحلول الموجودة فيه مع الواقع والظرف والزمن. ومفاهيمه آخذة بالاكتشاف شيئاً فشيئاً، بل قل أنّه آخذ بافتتاح الحواجز والوصول إلى المدارك والعقول.

إنّ نظرة فاحصة إلى العهد الذي كتبه عليه السلام لمالك الأشتر، يُنبي لذوي الإختصاص بعلم الإجتماع والإدارة والسياسة والمشرعين، الأسلوب المتقدم في هذه المعارف والمناهج المتطورة المطروحة وما ينطوي عليه هذا العهد من وعي وإدراك الأصول إدارة المجتمع وعلاقة الحاكم بالمحكوم، وتصنيف طبقات الناس ووسائل الارتباط بين هذه الطبقات وأسباب التفاعل بينها وواجبات وحقوق كلّ طبقة والتنسيق والتوازن بين الواجبات والحقوق، ومهام السلطات وترتيب أحوالها والمحرّك لها. ويشير إلى عوامل النجاح وحوافزه وسبل الإرتقاء بمكونات المجتمع ورفع الحيف والظلم وإحقاق الحقوق وإرسال ثقافة النزاهة والعمل الإصلاحي. مع ما به من تشريعات متكاملة في موضوع حقوق الإنسان واحترام الجنس البشري، ورفض التعصّب والأثَرة أو الاستغلال وسوء الإدارة. وغير ذلك من المعارف والعلوم الاجتماعية المنطوية على الإبداع والمبادرة.

وهو ما ينطبق على سائر كلامه عليه السلام ووصاياه ورسائله إلى العاملين في الدولة أو سائر صنوف المجتمع.

إنّ البحث في مناهج مدرسة الإمام عليه السلام لا يثمر ويؤتي أكله بمجهود فردي أو محاولات يتيمة. إنّما هو عمل جماعي وجهد كبير ومشترك، تقوم به مؤسسات ومنظمات وعلماء متخصصين ومتنوعين بتنوّع موارده. كلٌّ واختصاصه والمبحث الذي يبتغيه والغاية التي يريد إدراكها، فتحصل الفائدة المرجوّة بجهد منظّم ومدروس.

أثر كلامه:

إذا كانت حِكَم أمير المؤمنين عليه السلام تنفذ إلى القلب وتؤثّر في النفوس. وإذا كانت مواعظه تهزّ الأرواح فتخشع وتحرك المشاعر فتحيلها إلى دموع، وتنبه الأحاسيس فتقشعر الجلود. كذلك كلّ كلامه بمختلف موارده ومبانيه، أثره ظاهر وتأثيره خالد مع تعاقب السنين ومرورها.

فلا تخلو خطبة من خطبه أو حكمة من حكمه وسائر كلامه من علامات التأثر والتفاعل التي تحدثها، وتجدها مرسومة في وجوه مستمعيه تترجمها شدة الانتباه ورجفان القلوب وبكاء العيون. ومثله نراه في أعماق القارىء العارف لمعاني الكلمات، المتحسس لمواطن الإبداع ورقي الفكرة، مع اختلاف الثقافات ومرور الأزمان.

يقول السيد الرضي عند ذكره خطبة الإمام المعروفة «بالغرّاء»[1]: «لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب».

وبعد قرون من الزمن يصوّر الشيخ محمد عبدة، ويصف كلام الإمام بنفس لروح والأثر والتعجّب، رغم مرور الزمن الطويل

(١) الخطبة رقم (٨٢) من خطب الإمام علي عليه السلام، الصفحة (١٦٠)، نهج البلاغة.

والاختلاف في المدارس والمناهج، والتغيّر الحاصل في الأفكار والمجتمعات. فعند قراءته لبعض ما جاء في النهج يقول: «كأنّي أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمور الأمّة، يعرّفهم مواقع الصواب، ويبصّرهم مواضع الارتياب، ويحذّرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم إلى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصّات الرئاسة، ويُصعدهم شُرف التدبير، ويُشرف بهم على حسن المصير»[1].

بمثل هذه العبارات صوّر هذا العالم الجليل تقييمه إلى كلام الإمام. وبعد كل هذه السنين وتطور فنون المعارف واستحداث علوم الكلام والبيان. قرأ كلامه وتأثّر به هذا التأثر، ودفعته الرغبة الجامحة أنْ يقوم بشرحه وبيان ما به من فنون الفصاحة والبلاغة، مع اعتقاده أنّه لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلّا أصبه، ولم يدع للفكر ممرّاً إلّا جابه.

ولسنا في معرض ذكر من قرّض نهج البلاغة وجاهد في وصفه. فما قيل فيه يفوق في الحجم والكمّ ما في النهج آلاف المرات. ولا مفر من التعرّف على بعض آثاره وتوقيعات كلامه في النفوس. إنّ أحد أصحابه وهو همّام بن شريح، حين طلب من الإمام أنْ يصف له المتقين، وقد أعرض الإمام عليه السلام عن إجابة طلبه أول الأمر لمعرفته بهمّام وتأثّره فيما يقوله.

فقال له الإمام: «اتّق الله يا همّام وأحسن، فإنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون». وبعد أنْ كرّر عليه الطّلب، ذكر له الإمام صفات المتقين. وكلّما صعّد الإمام في كلامه ازداد اضطراب همّام، حتى صعق

---

(١) بعض ما جاء في تقييم الشيخ محمد عبدة، لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، في شرحه لنهج البلاغة.

ومات في مكانه من فرط تأثره في كلام الإمام، ووعيه ومعرفته به، وانشغال قلبه فيه. فقال عليه السلام: [أما والله لقد كنت أخافها عليه (أي الصعقة)... هكذا تفعل المواعظ البالغة بأهلها][1].

ولم يكن التأثر بكلامه عليه السلام مقتصر بأصحابه، بل وفي نفوس أعدائه والمخالفين له.

روي أنه عليه السلام، كان جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم، فقال عليه السلام: [إنّ أبصار هذه الفحول طوامح (طمح البصر: إذا ارتفع وأبعد في الطلب)، وإنّ ذلك سبب هَبابها (أي هيجانها) فإذا نظر أحدكم إلى امرأةٍ تعجبه فليلامس أهله، فإنّما هي امرأةٌ كامرأة][2].

فقال رجل من الخوارج: «قاتله الله كافراً ما أفقهه».

فوثب القوم ليردّوه، فقال عليه السلام: رويداً إنّما هو سبٌّ بسب، أو عفوٌ عن ذنب.

ويصف أحد مخالفيه، مقطع من كلامه لا يزيد على أربع كلمات: «إنها شافية وكافية ومجزية ومغنية، بل وفاضلة على الكفاية، وغير مقصّرة على الغاية».

وإذا كان القول فيه من أرباب علم الكلام وأهل الفصاحة والبلاغة والبيان، أنّه مَشْرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كلُّ قائلٍ خطيب،

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، في وصف المتقين، رقم (١٩١)، الصفحة (٤١٧)، نهج البلاغة.

(٢) من كلماته القصار، رقم (٤١٥)، الصفحة (٧٢٠)، نهج البلاغة.

وبكلامه استعان كلٌّ واعظٍ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وتقدّم وتأخروا، لأنّ كلامه عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي.

فقول أهل علم الإجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم الإلهية وعلم الفلك والتربية، وسائر المعارف والعلوم، بمثل ذلك وأكثر. ولو أنّ أرباب هذه العلوم والمتخصصين أوْلو هذا الكنز الثمين اهتمامهم أكثر، لكان النفع أكبر. ولاختصروا الزمن والجهود والنتائج في بحوثهم ودراساتهم.

وقد عرف له أعداءه الفضل في العلم والمعرفة، ولا يجسر منهم أحد في الانتقاص من حقه في ذلك، ومن يأمر به يُفتضح ولا يُعنى به ولا بكلامه.

عندما قُتل الأشتر غيلة وهو بطريقه إلى مصر عُثر على العهد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام له. ووصل هذا العهد إلى يد معاوية، فقرأه بحضور عمرو بن العاص، فطلب ابن العاص من معاوية أنْ يمزّقه ويتخلّص منه، فكان جواب معاوية له: إنّ ذلك من سفه الرأي، وضعف المشورة وقلّة المعرفة. فالعهد ينطوي على دروس ومعارف وعلوم لا تحصى ولا تُحصر فوائده، فكيف يطلب منه التخلص من كنز كهذا وقع بين يديه؟ وإن كان من صنع عدوّه. والفطنة تقتضي الحفاظ عليه الاستفادة منه، وهو أكبر غنيمة يحصل عليها.

ونستطيع أن نقول ويملء الفم: إنّ كلامه عليه السلام، وفي مختلف مناحيه وأبوابه، ومفاهيمه ومقاصده، فاعلٌ لا منفعل ومؤثر لا متأثر، وفيه من العجائب ما تبهرّ العقول، وتحيّر الأفهام.

من ميادين النهج:

إنّ المباني الفكرية في كلام أمير المؤمنين ﷺ متنوعة وكثيرة. وهي ليست في باب واحد أو علم واحد، وهذه إحدى الميزات الجليلة فيه. وميزاته لا تقتصر في البلاغة والبيان ومناهج الفصاحة وعلم الكلام، إنّما هي ميّزات في المفاهيم والمدارك والمعارف كما قلنا سابقاً. والمتتبع يجد في جميع مبانيه، صفاء الرأي وسحر البيان وعمق الفكرة وطهارة الوجدان والسمو والرفعة والنصرة للمظلوم، والتعصّب للحق والدعوة لمكارم الأخلاق والأمانة والنزاهة والعدل.

وحيث إنّ الإمام ﷺ ذلك الإنسان المتكامل الجامع لمراتب العزّ والفضائل، كذلك كلماته لا تنحصر ببعدٍ واحد، وتمتد لأبعاد كثيرة وتنطوي على عوامل عديدة. والكلام عند أمير المؤمنين ﷺ لم يكن هدفاً أو وسيلة ليبدي به مهارته في الكلام وفصاحته في العبارات والجمل، بل هو وسيلة إلى أهدافه يستعمله لتوضيح وشرح تلك الأهداف، والمباني التي من أجلها أنشأ الكلام.

وهو بذلك يخاطب الإنسان كونه إنسان، بصرف النظر عن النوع والشكل والمكان أو الزمان. لهذا تأثيرات كلامه لا يُبطلها تطاول الأزمنة أو اختلاف الأمكنة أو تنوّع الأذواق، وتباين الأذهان والمفاهيم.

وفيما يخص المقامات التربوية في المدرسة العلوية، فهي زاخرة بالمعرفة والمناهج الهادفة والأفكار الداعية إلى إصلاح النفس البشرية والارتقاء بها إلى مراتب الرفعة والكرامة، والعمل على إشاعة ثقافة النزاهة والعدل ونبذ الظلم والفساد.

الحاكم والمحكوم:

أولى أمير المؤمنين عليه السلام مسألة الحكومة أهمية بالغة. ومن أولويات توجيهاته في رسائله وكتبه وعهوده إلى العمال وأصحاب الخراج وأهل القضاء ما يتعلق بالشؤون الإدارية والأمور الاجتماعية، وعلاقة الحاكم بالرعية وطرق معاملتهم، تأكيده على أداء الأمانة والعمل بسيرة العدل وإحقاق الحق، وإنصاف الخلق.

ومن أهمية الحكومة ولزومها لتنظيم أمور المجتمع، وترتيب أحوال الناس والخراج والدفاع والبناء والعطاء والقضاء، وغيرها من متعلقات الفرد وأمور البلاد، يتحرك الكلام عند أمير المؤمنين عليه السلام ليضع النقاط على الحروف، ويجيب على الكثير من الإشكالات أو التصورات الخاطئة، ويعرّف بواجبات الإمام وصاحب الأمر وأصحاب الوظائف بالدولة والرعيّة، كلٌّ حسب واجبه ومسؤوليته. وأنّ الغاية في ذلك إقرار العدل وإجراء الحق، وهو الهدف الإلهي في إرسال الرسل وإنزال الكتب وتبليغ الناس، كما نصّت عليه الآية (٢٥) من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

وما يُفترض من وجود حكومة مستقيمة غير محرّفة عن هدفها تعمل بهذا الاتجاه، ووفق منهج القيام بالقسط.

يقول عليه السلام: [وإنّه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي][1].

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام في الخوارج، رقم (٤٠)، الصفحة (١١٤)، نهج البلاغة.

ومع افتراض عدم وجود حكومة صالحة، فوجود الحكومة بحدّ ذاتها خير من قانون الغاب، والفوضى.

وإنْ كان هذا القول منه ﷺ ردّاً على طرح الخوارج الفاسد. حين رفعوا شعار: «لا حكم إلّا الله»، إلّا أنّه قانون عام لمسألة الحكومة، وضرورتها في تسيير أمور البلاد والعباد. إنّ الحكومة في تقييم المصلحين ودعاة العدل، ليست مقاماً دنيوياً، ولا هدفاً في الحياة. إنما هي واجب وتكليف، ووظيفة إلهية غايتها إجراء العدل وإنصاف الناس.

والحكومة لا تقوم إلّا بشروطها، وأول وأهم هذه الشروط قبول الناس بها. وأنْ تكون منبثقة من إرادتهم، ووالية لتطلعاتهم، لتحقق آمالهم وتستجيب لرغباتهم.

لا أنّ تكون غريبة عنهم وبعيدة منهم، تشكّل في الخفاء وتعمل ما تشاء، دون النظر إلى الناس وحاجاتهم، بل تنظر فقط إلى حاجاتها هي وحاجات من يسير في فلكها وإنْ كانوا القلّة القليلة. فيضيع بذلك حقّ الأكثرية من الناس على حساب مجموعة من المنتفعين أو الموصوليين، وتفقد الحكومة أسباب وجودها أو الغاية من قيامها.

إنّ الكثير من الحكومات تعمل على سدّ حاجيات الناس من مأكل وملبس ومسكن وغيرها من الأمور الحياتية، ولكن هل هذا وحده يكفي، وهل به وحده أيضاً يحصل الرضا عن الحكومة وعملها، أو تُقيّم بأنّها حكومة ناجحة صالحة؟ إنّ الأهم من ذلك نظرة الحكومة إلى شعبها وتقييمها له ودرجة معرفتها لثقافة الحكم وآليات إدارة البلاد وسياسة العباد. هل هذه الحكومة تنظر إلى الناس على أنهم تابعين لها، أو عبيد وهي المالكة؟ أم أنّهم أصحاب حقوق في جميع الأمور، وهي أي الحكومة مؤتمنة عليهم كفيلة بأداء الأمانة، وذلك برعايتهم وخدمتهم

وتحقيق آمالهم. وأنّ هذا الواجب ليس حكراً، إنّما هو واجب عام يصلح له الجميع، وهو من حقّ الجميع.

لذا فإنّ اعتراف الحكومة بحقوق الناس، وحذرها من أي عمل يشعرهم بنفي حقوقهم أو الانتقاص منها، سيوطّد العلاقة بينهما، ويقوّي عوامل الثقة والاطمئنان عند الناس، وعندها يحصل الرضا الذي منه يكون استتاب الحال، وانشغال الكلّ بالبناء والتطوير، ما ينعكس بالإيجاب على حركة النهوض والتقدم عموماً.

وبطبيعة الحال فإنّ لكلّ حكومة برنامج عمل وخطّة وسياسة لإدارة البلاد وإنجاز المهمّة، وهذا لا يعني النظر فقط إلى عبارات أو مصطلحات برنامج الحكومة وما تطلقه من شعارات وما تعطيه من وعود. ولكن العمل والإنجاز وما يلمسه المواطن على الأرض هو المهم في تقييم الحكومة والحكم عليها، فهي المسؤولة، والمواطن هو الرقيب، وعمل الحكومة هو الحاكم والدليل.

إنّ الأقوال والوعود والشعارات ليس أسهل منها، إنّما العمل والأداء والنتائج هو المهم، وما ينتظره المواطن ويصبو عليه. فإنّك لن تجد حكومة لا تقول إنّها ستعمل وتنجز، ولكنّ الفعل هو الذي يُصدّق قولها أو يكذّبه.

يقول عليه السلام: [الحقّ أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف][1].

أي أنّ كلّ أحد يصف الحقّ ويذكر محاسنه ووجوبه، ويقول: لو

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، في منصرفه من صفين، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٤٩)، نهج البلاغة.

ولّيتُ لعدلت. ولكنّه بعد ذلك يتنصّل ويعمل بغير ما يقول. فالحقّ باللسان وسيع، وبالفعل ضيّق.

وكذلك من واجب الحكومة تقوية أواصر الصلة مع الناس، وعدم الابتعاد والاحتجاب عنهم، بل التقرب منهم وسماع همومهم وشكاواهم ومعرفتها عن قرب، وعدم الاعتماد بالكليّة على البطانة أو الخاصة، وقد يكون منهم عدم الدقة أو عدم الصدق والأمانة في نقل المعلومات، أو تصويرها بعكس حقائقها.

وأكثرهم كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: [فيهم استئثار وتطاول، وقلّة إنصاف في معاملة](1).

وهم (أي البطانة)، لا ينقلون السَّيئ من الأمور إلى مسؤوليهم، لأنّ تبعة ذلك يقع عليهم، فما من سيّئٍ أو تقصير إلّا من صنع أيديهم وأيدي المقربين منهم. فتضيع الأمانة في نقل المعلومات إلى المسؤول، فلا يعرف مواضع الخلل حتى يعالجها، أو يستدل على السلبيات ويعمل على إزالتها. فلو كان المسؤول يعمل بالحقّ، ولا يظلم الخلق، ففيم احتجابه عن الناس والابتعاد عنهم؟

يقول عليه السلام: [فلا تطوّلنّ احتجابك عن رعيتك، فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضّيق، وقلّةُ علمٍ بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبُحُ الحسن، ويحسُنُ القبيح، ويُشابُ الحقُّ بالباطل، وإنّما الوالي بشرٌ لا يعرفُ ما تَوارى عنه الناس به من الأمور](2).

---

(١) من عهد الإمام إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٩١)، نهج البلاغة.

(٢) نفس العهد المذكور، الصفحة (٥٩٠).

إنّ وضع الحواجز بين المسؤول والمواطن، له آثار سلبية في عمل المسؤول وفي مصالح الناس أيضاً، ويمنع كثيراً في إرساء الثقة في نفس المواطن تجاه حكومته، مع ما يؤخر من إنجاز الأعمال وتنفيذ الخطط. ومن المفيد مع وجود المستشارين للحكومة وأهل الاختصاص، أخذ رأي المواطن والاستماع إليه فيما يبديه من ملاحظات هو أقرب إليها وأكثر تماسّاً معها. وأيضاً حتى لا تُخلق حالة من التحفّظ عند المواطن من الحكومة أو الخوف فيستثقل من قول الحق أو إبداء الرأي.

يقول عليه السلام: [فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة، ولا تتحفَّظوا منّي بما يُتحفّظ به عند أهل البادرة (أي أهل الغضب)، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي، ولا التماس إعظامٍ لنفسي، فإنّه من استثقل الحقَّ أنْ يُقال له، أو العدل أنْ يُعرض عليه، كان العمل بهما أثقل. فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحقّ، أو مشورةٍ بعدل][1].

وكان يُقال: من أعطي الاستشارة لم يُمنع الصواب. وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حثٌّ على المشورة، وعلى المسؤول قبولها ودراستها وعدم الاستثقال منها أو الترفّع والتكبّر عن سماعها والأخذ بها.

فإنّ من أسخف حالات الولاة أن يُظنَّ بهم حبُّ الفخر، ويوضع أمرهم على الكِبْر[2].

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، خطبها في منصرفه من صفين، رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٥٢، ٤٥٣)، نهج البلاغة.

(٢) من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة رقم (٢١٤)، الصفحة (٤٥٢)، نهج البلاغة.

ومن أقوال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّةٍ من كِبْر»[1].

وبالمقابل فإنّ على المواطن، في حال منحه حقوق الممارسة الديمقراطية، أنْ يُحسن استخدام هذه الحقوق، ويضع الأمور مواضعها، ولا يضيّع فرصة في استحصالها وبالطرق السليمة والوسائل الصحيحة، دون اللجوء إلى ما يبعدْ عن الممارسة الحقّة للديمقراطية، أو يُقحم نفسه في أمور مخالفة للقوانين والأنظمة السليمة، والتحلّي بمبادىء ثقافة الديمقراطية والسعي للعمل بروح المصلحة العامة وتغليبها على المصالح الفردية أو الآنيّة، والنظر إلى مشاكل المجتمع والبلد لا إلى مشاكل الأفراد فقط، فإنّ في بناء المجتمع وحلّ مشاكله وسير عجلة التعمير والخدمات والمشاريع حلٌّ جذري لمشاكل الأفراد من بطالة أو فقر أو مرض أو أمور أخرى متعلقة بحياتهم.

يقول عليه السلام: [الولايات مضامير الرجال][2].

أي تُعرف بها الرجال كما تُعرف الخيل بالمضمار، «وهو الموضع أو المدّة التي تُضمَّر فيها الخيل، ليعرف الجواد الأصيل من دونه» والمسؤولية أشبه ما تكون بالمضمار، وهو اختبار وامتحان تُعرف به الرجال، ويميز أصحاب النفوس الرفيعة والأخلاق السامية من ضعاف النفوس وأهل الفساد.

ومن كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام، قاله لأحد الولاة على سبيل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٩٨)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٣).

(٢) في باب حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٤٣٥)، الصفحة (٧٢٤)، نهج البلاغة.

التوجيه والمراقبة: [واحذر العَسْفَ والحيْفَ، فإنّ العَسْفَ يعودُ بالجلاءِ، والحيْفَ يدعو إلى السيف][1].

العسف: الشدّة في غير الحق. الجلاء: التفرّق والتشتت. والحيف: الميل عن العدل إلى الظلم.

إذاً فالإمام يحذره من استعمال الشدة في معالجة الأمور فإنّ الشدة تدعو للفرقة والتشتت. وأنّ الميل عن العدل إلى الظلم ينزع المظلومين إلى القتال والدفاع عن حقوقهم ودفع الظلم عنهم لإنقاذ أنفسهم.

وإنّ استمرار الظلم على الناس يدفعهم إلى القيام بما لا يتصوره الظالمون ولا يتوقعونه، والمظلوم يصل إلى مرحلة تهون عليه نفسه التي هي أعزّ شيءٍ يملكه، وعندها سيكون ثمن حياته التيجان والعروش.

«البوعزيزي»، شابٌ تونسي أحرق نفسه احتجاجاً ورفضاً فأحرق نظاماً بأكمله. فكم عملية إحراق يحتاجه المجتمع العربي، حتى يطهر من الطغاة؟

---

(١) في القصار من كلماته ﷺ، رقم (٤٦٩)، الصفحة (٧٣١)، نهج البلاغة.

نهج البلاغة وثقافة النزاهة

نتناول في هذا الجزء من الكتاب، تقريرات أمير المؤمنين عليه السلام، والتي قدّمها على هيئة وصايا وتوجيهات وأوامر جاءت في خطبه ورسائله وحِكَمه وكتبه إلى عماله والولاة وأهل الخراج والقضاء، يصوّر فيها آراءه الصائبة في الحكم والإدارة وقواعد العدل الاجتماعي وحقوق الإنسان. وهي تنمُّ عن عقل فريد وعلم وخبرة بالناس والمجتمعات والأحداث. وما نتناوله من النهج متعلق بموضوع كتابنا ثقافة النزاهة. وفلسفة الإمام الاجتماعية، وما بنى عليه من آراء في العدل والأخلاق والحكم والإدارة، وعلاقة الحاكم بالرعية، وطبقات المجتمع وحقوق الأفراد والسياسة، وأداء الأمانة ومحاربة الفساد.

دروس ومناهج يُعرّف بها مواقع الصواب، ويرشد إلى طريق الهداية، ويحذّر من المزالق والأخطاء، ويوصل إلى مواطن النزاهة والصلاح.

اختصّ كلامه عليه السلام بمميزات تخفق بالحياة، وتنعم بدفء التجربة، وتكشف عن فلسفة أخلاقية من رحم تجاربه وشخصيته وممارسته للحياة والحُكم. غايتها غرس الفضيلة في النفوس واستئصال الرذيلة منها.

إنّه يقدّم مناهج ومعالجات جذرية للأمور المشكلة والمبهمات، مبنية على نظر فلسفي عميق، ومعرفة كاملة بكنه الحياة وحقيقتها. ومن

رسائله تصدر أحكام وتقريرات ترسم الخطوط العامة للإدارة وتنظيم المجتمع وأصول الحكم والقضاء، ومعاملة الناس وحقوق الإنسان.

وهو في جميعها يُراعي تقوى الله والورع، ومظاهرة الحق على الباطل، ونصرة الخير على الشر، ومؤازرة العفّة على الفساد. ولم يهمل صغيرة ولا كبيرة من أمور الناس والمجتمع إلّا وتصدّى لها مدافعاً عن المستضعفين ومناصراً للمحرومين ومجالداً للظلم والظالمين. وكان أكبر همّه في توجيه الولاة والعاملين بالدولة إلى مراعاة عامّة الناس والميل إليهم، والعمل على إسعادهم ودفع الضيم عنهم.

إنّ بعض ما جاء في عهده إلى مالك الأشتر يقول عليه السلام: [وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء، العامّة من الأمّة، فليكنْ صغوكَ لهم وميلك معهم][1].

معتبراً العامّة من الناس هم العماد وجماع الأمر. وأوجب على من يرعى شؤون الدولة والأمّة، أن يجعل جلَّ اهتمامه ورعايته وصغوه إليهم. ويُعرّف أنّ قانون الإدارة والحكم، الإجتهاد في رضا العامّة. ولا مبالاة بسخط الخاصة مع رضا العامّة، لأنّ العامّة لا غنى عنهم ولا بدل منهم، ولأنّهم إذا شغبوا على الدولة والحكم كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب فلا يقف بوجهه أحد.

لذلك يقول: [فإنّ سُخْطَ العامّة يُجْحِفُ برضا الخاصّة، وإنّ سُخْطَ الخاصّة يُغتفرُ مع رضا العامّة][2].

إنّ كلمات الإمام عليه السلام تكتشف مواطن التأثير في النفس الإنسانية،

---

(١) من عهد أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٧٤)، نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

وهي تنفذ إليها بشكلٍ مباشر، لذا فإن عمل هذه الكلمات في النفوس يكون مباشراً أيضاً وجوهرياً. وأنّ المتلقّي لها يحسُّ أنّها يتجلّى فيها الإخلاص والصدق والأمانة في المبنى، والجرأة والصراحة في الطرح، والقوّة والرزانة والسمو في التفكير. فيقبلها برضا وقناعة، وعن إيمان وثقة.

لذلك عاشت أفكاره وآراءه والمناهج التي أسّس عليها في عموم المجالات، وخصوصاً علم الاجتماع والسياسة والحكم في أذهان التأريخ ووجدان الناس أينما كانوا ومن كانوا.

لقد تهيّأت لأمير المؤمنين عليه السلام من معرفته العميقة بعلوم القرآن ومخالطته رسول الله صلى الله عليه وآله، يمتحُ من علمه وسحر بيانه ومعارفه، ومن كفاحه منذ صغره بجنانه ولسانه وجميع جوارحه ما لم يتهيأ لغيره. تتفجر فيه الإمكانات والملكات، ويصدر من كلامه فيضٌ من آيات الحكمة والعلوم والمعارف. تتسع بها دراسات الدارسين وتأملات العارفين وبحوث العلماء والمتخصصين بجميع مرافق ومعاقل العلم والمعرفة.

من هذه النظرة الواقعية، وجدنا أنّ أفضل ما نلجؤ إليه في تحصيل البغية في أصول البحث فيما نحن فيه، بما يخصُّ ثقافة النزاهة ومحاربة الفساد، أنْ نأخذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المتعلّق بهذا الموضوع المهم والحيوي. ونعتمد منهاجه وتقريراته وآرائه الصائبة السليمة، لملاءمتها كل عصر واستيعابها جميع العقول، وأنّها تتحدّى الزمان والمكان في التواصل والحضور.

وربّما يُعاد الكلام أو الموضوع خلال البحث، وما ذاك إلّا للضرورة، أو تشابك بعض المواضيع مع بعضها. فيقتضي التكرار. مع أنّ القارىء لا يشعر بالملل من تكرّر كلامه عليه السلام، لكونه تهيّأت به للناظر

فيه قبسات من نور الكلام الإلهي والهدي النبوي، فهو مصباح هداية ورشاد، ودليل معرفة وصواب.

فضلاً عن كونها دراسة مضافة في سلسلة بحوثنا في علوم نهج البلاغة، أرجو من الله سبحانه أنْ يوفقني فيها ويرشدني في الاستمرار بها، وأنْ لا تكون الأخيرة في فسحة العمر الباقية. فهو المستعان وهو ولي التوفيق.

صفة خلق آدم عليه السلام

في بعض ما جاء في الخطبة الأولى في نهج البلاغة عن صفة ابتداء خلق آدم عليه السلام، وكيف جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربةً سنَّها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلّة حتى لزبت[1]. . . ثمّ جعلها صلبة متينة حتى صلصلت (أي يبست)، ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً. ولمّا كان خلق الإنسان من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها، فهو تبع لذلك مركب من طباع مختلفة، وفيه استعداد للخير والشر والحسن والقبيح.

يقول عليه السلام: [ثمّ نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهانٍ يُجيلها، وفكرٍ يتصرّفُ بها، وجوارح يختدمها. . . ومعرفة يفْرُقُ بها بين الحقّ والباطل][2].

مَثُل: أي قام وانتصب. والأذهان: قوى التعقّل. يجيلها: يحركها في المعقولات. ويختدمها: يجعلها في مآربه، كالخادم الذي يستخدمه.

ومنحه سبحانه معرفة يهتدي بها ويفرق بين الحقّ والباطل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3] وقد منح

(١) مقتبسة من الخطبة رقم (١)، الصفحة (٤٠) في نهج البلاغة.
(٢) من الخطبة رقم (١)، الصفحة (٤١)، نهج البلاغة.
(٣) سورة الإنسان، الآية (٣).

سبحانه الإنسان أذهان يحركها وفكر يتصرف بها، ليميز بين الصواب والخطأ والصالح والفاسد. فإذا اختار الطريق الأمثل في سبل هذه المعرفة، فإنّه يصل إلى ذلك التمييز، فيقدم على الصواب ويتجنب الأخطاء.

وفي ذلك يحصل على سعادته، ويحقق كرامته التي أرادها له خالقه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

شروط التصدّي

قوله عليه السلام: [وما أخذ الله على العلماء أنْ لا يُقارّوا على كِظّة ظالم ولا سغب مظلوم][1].

والكِظّة: بكسر الكاف، ما يعتري الإنسان من الثقل عند الامتلاء من الطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

والسغب: شدّة الجوع، والمراد منه هظم حقوق المظلوم.

وكلمة العلماء: يعني بها نفسه، أو كل أولي الأمر وأصحاب المسؤوليات والمتصدّين. فالكلّ مكلّف، ومأخوذٌ عليه أنْ لا يمكّنوا الظالم من ظلمه، ولا يسكتوا أو يتهاونوا إذا هُظم حقّ المظلوم.

لقد جاءت هذه الفقرة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، في خطبته المعروفة «بالشقشقيّة». ولسنا هنا في معرض التعرض لهذه الخطبة، وإنّما لتأشير ما تلمح إليه هذه العبارة فيما يعنينا من موضوع النزاهة ومحاربة الظلم ومعونة المظلوم. وما فُرض على أئمة العدل أنْ لا يمكّنوا الظالم من ظلمه، ويعملوا عند توفّر شروط العمل على التصدّي والقيام بواجبهم في نصرة الحق وإعلاء كلمته.

لهذا فهو عليه السلام يقول: [لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء... إلى آخر كلامه][2].

---

(١) من خطبته رقم (٣)، المعروفة «بالخطبة الشقشقية»، الصفحة (٥٦)، نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر السابق.

وهي الشروط المهيئة للقيام بالأمر والتصدّي.

فحضور الحاضر، يُريد به من حضر البيعة، ومن حضره ممّن يستعين بهم. فتكون الحجّة عليه إذا ما تخلّف عن القيام بواجبه، لوجود من ينصره.

ثمّ ما أوجبه الله سبحانه على أولي الأمر من النهوض في مسؤولياتهم تجاه مجتمعهم ومبادئهم وأنفسهم.

الإمرة

قوله ﷺ: [هذا ماءٌ آجنٌ، ولُقمةٌ يَغَصُّ بها آكلُها][1].

والآجن: المتغيّر الفاسد، يقال: ماءٌ آجنٌ: أي متغيّر اللون والطعم لا يُستساغ. وهو إشارة للخلافة أو الإمرة، بمعنى أنّ الإمرة أو المسؤولية على الناس وولاية شؤونهم، ممّا لا يهنأ لصاحبه، وإنّما هو أمر يشبه تناول الماء الآجن، يجد شاربه مشقّة وكدر. وأيضاً لا تحمد عواقبه مثل اللقمة يغصُّ بها آكلها فيموت بها.

إنّ من يعتقد أنّ الإمرة أو الوظيفة أو أي منصب، هو مسؤولية وواجب ومطلوب أداء تلك المسؤولية وأداء ذلك الواجب كما ينبغي، وأنّها تكليف للصلاحية والأهلية الموجودة في الشخص لأداء عمل معيّن هو من يصف الإمرة أو المسؤولية بالماء الآجن واللقمة التي يغصُّ بها آكلها، وليست غاية أو هدفاً يصل إليه فيكون كل مراده ومبتغاه.

وقد جاء كلام أمير المؤمنين ﷺ، لمّا قُبض رسول الله ﷺ وخاطبه العباس بن عبدالمطلب وأبو سفيان بن حرب في أنْ يُبايعا له بالخلافة، فكان هذا القول بعضٌ من كلام تكلم به إليهما بحضور الناس، بيّن رأيه في الإمرة، وكيف أنه ينظر إليها، ومثّلها بما مثّلها، وهي كذلك.

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين ﷺ، رقم (٥)، الصفحة (٦٠)، نهج البلاغة.

في ذمّ أتباع الشيطان

قوله عليه السلام: [اتّخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودَرَجَ في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزّلل، وزيّن لهم الخطل][1].

ملاك الشيء: قوامه الذي يملك به.

أشراكاً: جميع شريك، فيكون بمعنى، جعلهم شركاءه. أو يأتي بمعنى شَرَك، وهو ما يُصاد به، فيكون بمعنى أنّهم آلة الشيطان في الضلال.

باض وفرّخ: كناية عن طول مكثه في صدورهم، ذلك أنّ الطير لا يبيض أو يفرّخ إلّا في الأماكن التي هي مسكنه ووطنه. وهي استعارة للوسوسة والإغواء.

دبّ ودرج: كالطفل يتربّى في حجر والده حتى يكبر ويتقوّى.

الزلل: الخطأ. والخطل: القول الفاسد أو الخطأ القبيح. أراد أنّه لشدّة اتّحاد الشيطان بتلك النفوس وامتزاجه بهم صار كمن ينظر بأعينهم وينطق بألسنتهم، أي صار الاثنان كالواحد.

فمن يتخذ الشيطان وليّاً ويملّكه أمره ونفسه، سوف يشاركه الشيطان

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٧)، الصفحة (٦٢، ٦٣)، نهج البلاغة.

بجميع أموره، ويتمكّن منه في الوسوسة والإغواء، ويهوّن عليه ارتكاب الأخطاء ويزيّن له الفساد، حتى يتطبّع به، ويكون جزء من أخلاقه وصفاته.

في العدل سعة:

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فيما ردّه إلى بيت المال من القطائع: [والله لو وجدته قد تُزوّج به النّساء، ومُلك به الإماء لرددته، فإنّ في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق][1].

القطائع: ما منح للبعض من الأراضي.

فمن عجز عن تدبير أمره بالعدل، فهو عن التدبير بالجور والظلم أعجز، لأنّ الجور مظنّة أنْ يقاومه أحد، أو يعترض عليه، وهذا غير حاصل في العدل. لهذا فالعمل بالعدل أوسع وأكثر أماناً واطمئناناً.

ومن دروس هذا الكلام، أن الحقوق المسلوبة، يجب استرجاعها إلى جهتها التي أخذت منها، وأنّ الزمن وإنْ طال لا يمنع من ذلك، والحقّ القديم لا يبطله شيء.

كذلك الامتيازات أو العطاءات التي يهبها الحاكم أو المسؤول إلى أقاربه أو معارفه وأتباعه من غير دواع تدعو لذلك أو وجه حقّ، سوى الأَثَرة والتمييز. أو ما يقطعه لنفسه وأهله، فهو من نصيب الحقّ العام، ولا أحقيّة للمسؤول فيه، وواجب إرجاعه يقع على من يخلفه وعلى الناس أيضاً عدم تركه والإغفال عنه أو التهاون فيه.

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٥)، الصفحة (٦٧)، نهج البلاغة.

الخطايا والتقوى

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، لما بويع في المدينة: [ألا وإنّ الخطايا خيلٌ شُمُسٌ، حُمل عليها أهلها، وخُلعت لجُمُها فتقحمّت بهم في النار. ألا وإنّ التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمل عليها أهلها، وأُعطوا أزمّتها، فأورتهم الجنّة. حقٌّ وباطل، ولكلٌّ أهل][1].

خيلٌ شُمُسٌ: الخيل الشرسة تمنع ظهرها أنْ يُركب، والشُمُس: جمع شَموس.

شبّه عليه السلام الخطيئة بالفرس الجموح وقد خُلعت لجامها، كذلك منْ لم يلجم نفسه بالتقوى، أو بحدود الشرع والأخلاق، تنفعه لارتكاب الآثام والخطايا، وتورده موارد الفساد. ومن يقدم على الخطيئة، إنّما لغاية زُيّنت له، فيحاول الوصول إليها، فهو كراكب الفرس يجري به إلى غايته، فلو كان هذا الفرس جموحاً شرساً ومن غير لجام فسوف يوقع به في مهاوي التهلكة والردى.

أمّا السائر في طريق الخير والصواب، ويُراعي الله ويتقه في كلّ حركاته، مثّل تقواه وصلاحه بالمطايا الذلل، فالتقوى تحفظ النفس من الردى ومن النكوب عن الصراط، فصاحبها يسير على طريق مستقيم، ولا يزال على جادة الصواب حتى يوافي غرضه وغايته.

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٦)، الصفحة (٦٩)، نهج البلاغة.

والذلل: جمع ذلول، وهو السهل السلس. ومطايا ذلل: هي المروضة الطائعة والسهلة القياد بيد صاحبها.

وذكر عليه السلام: الحق والباطل، أي أنّ ما يمكن أنْ يكون عليه الإنسان، إمّا حقاً أو باطلاً، ولا يخلو أي أمر أو نزاع منهما. وللحقّ أصحابه، كذلك للباطل أعوانه.

وجاء في كلامه عليه السلام قوله: [مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلك][1] أي من خاصم الحقّ هلك.

وجاءت هذه الكلمة بعبارة أخرى وهي: «من أبدى صفحته للحقّ هلك عند جهلة الناس». أي من نَصَر الحقّ غلبته الجهلة بكثرتهم، فهم أعوان الباطل. والرواية الأولى هي الصحيحة، لتوافقها مع سائر الحديث وهدفه، وهو ما أكده مفسروا النهج كابن أبي الحديد، وقد ذكره في شرحه للنهج في الجزء الأول، في الصفحة (١٨٧)، وكذلك ذكر ذلك الشيخ محمد عبدة في شرحه للنهج في الصفحة (٧١).

من روائع مواعظه:

قوله عليه السلام: [فإنّ الغاية أمامكم، وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم. تخفّفوا تلحقوا، فإنّما يُنتظر بأوّلكم آخركم][2].

الغاية: إمّا نعيم وإما شقاء، فالواجب العدّة لهذه الغاية، والعمل بما يوصل الإنسان إلى الغاية الطيّبة المفرحة، وهو الثواب الجزيل، والابتعاد عن الشقاء والحزن والسوء، وهو العقاب. ثمّ إنّ الساعة التي توصلكم لهذه الغاية، كأنّها تسوقكم إلى ما تسيرون إليه، فلا تستبطئوها.

---

(١) نفس المصدر السابق، الصفحة (٧١).

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢١)، الصفحة (٧٩)، نهج البلاغة.

وقوله تخفّفوا تلحقوا: فإنّ من كان خفيف الحمل سريع الحركة، فهو إلى الوصول أسرع من صاحب الحمل الثقيل. والتخفّف هنا، من الأوزار والأعمال الموجبة للحساب، واللحاق، نتيجة للتخفّف وسرعة الحركة والوصول، فمن أراد أن يلحق بالذين سبقوا إلى الحسنى، والذين فازوا بالنعيم، وهي غايتهم، عليه التخفف من أثقال الفساد وارتكاب الآثام والأخطاء.

يقول الشريف الرضي تعليقاً على هذه المقطوعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه، وبعد كلام رسول الله ﷺ، لمال به راجحاً، وبرّز عليه سابقاً، فأمّا قوله عليه السلام (تخفّفوا تلحقوا) فما سُمع كلام أقلُّ منه مسموعاً، ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها (الغور: العمق) من كلمة، وأنقع (ما أرواه للظمأ) نطفتها (الماء الصافي) من حكمة»[1].

وأما قوله: يُنتظر بأولكم آخركم: يعني به البعث، فينتظر بعث الذين ماتوا أوّلاً حتى يلحق بهم من يموتون بعدهم فيُبعثون جميعاً للحساب.

---

(١) في الصفحة (٧٩) من نهج البلاغة.



قسمة الأرزاق

يقول عليه السلام [فإنّ المرءَ المسلمَ المبريءَ من الخيانة ما لم يغْشَ دناءةً تَظهرُ فيخشعُ لها إذا ذُكرت، ويُغرى بها لئامُ الناس، كان كالفالج اليسار الذي ينتظر أوَّلَ فورةٍ من قِداحه توجبُ له المغنم، ويُرفع بها عنه المغرم.

وكذلك المرءُ المسلم البريءُ من الخيانة، ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إما داعي الله فما عند الله خيرٌ له، وإمّا رزقَ الله فإذا هو ذو أهلٍ ومالٍ ومعه دينه وحَسَبُه][1].

الفالج: الظافر. والياسر: المقامر، الذي يلعب بقداح الميسر. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: كالياسر الفالج. أي كاللاعب بالقداح المحظوظ منها.

والمعنى: أنّ المرء إذا لم يأت فعلاً دنيئاً يخجل منه إذا ظهر أو ذُكر أو تكلّم به الناس، يكون كلاعب القداح المحظوظ في لعبه لا ينتظر إلّا الفوز. فالمرء البريء من العمل الدنيء أو الخيانة أو الفساد، لا ينتظر إلّا إحدى الحسنيين، إما داعي الله وما عند الله خير وأبقى وذاك نعيم الآخر وثوابها. أو نعيم الدنيا والآخرة معاً، فإنْ فاته شيء من الدنيا، لم يفته نصيبه من الآخرة. وإذا علم أنّ الأرزاق بيد واهبها له أنّ

---

(١) من خطبة له عليه السلام، رقم (٢٣)، الصفحة (٨١، ٨٢)، نهج البلاغة.

يُعطي أو يمنع لمصلحة هو أعلم بها، فهو أسمى من أنْ يحسد أحداً على رزقٍ ساقه الله له، أو يعترض على منعٍ مُنعه من أرزاق الدنيا. فلا يأسف على شيءٍ من هذا.

وهي من توجيهاته التربوية، ومفاهيمه الإصلاحية المصيبة. فالإنسان السوي والبريء من المساوىء أو المخجلات من الأمور، لا يرضى لنفسه الانحراف في تحصيل الكاسب، فيشوّه روحه ويهتك ستره ويُغري به اللئام من الناس ومَنْ يتربّص للسقطات. وذكر الزلّات فيحيى باليد البيضاء والصحيفة النظيفة، فيكون الرابح الظافر في جميع أحواله.

المضمار والسباق

من خطبة له عليه السلام في الحث على التزود للآخرة يقول: [ألا وإنّ اليومَ المضمار، وغداً السّباق، والسَّبَقَةُ الجنّة، والغايةُ النار... فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله، نفعه عمله ولم يضْرُرْهُ أجلُه، ومن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله وضرّه أجله. ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة][1].

المضمار: المكان والزمان الذي تضمّر فيه الخيل، والتضمير هو إحداث الضمور، أي خفّة اللحم، وهو الهزال. وطريقة تضمير الخيل أن توضع في مرابطها ويُزاد علفها وماؤها حتى تسمن، ثمّ يمنع عنها العلف والماء إلّا القليل منه، وتجري في الميدان حتى تهزل. يُفعل في الخيل ذلك لتكون خفيفة سريعة الجري يوم السباق. وهذا من تدريبها وتهيئتها.

كذلك الإنسان يعمل في دنياه، لينال الرضا في الآخرة. فالدنيا بمثابة المضمار الذي يُهيء الإنسان به نفسه لبلوغ المطلوب والحصول على المحبوب.

والسَّبَقة: الغاية المطلوب الوصول إليها في السباق، ويكون من معانيها، المرّة من السبق. وفي رواية «السُّبْقة» جاءت بضمّ السين وتسكين الباء، وقد فسّرها الرضي: اسم عندهم لما يُجعل للسّباق من

---

(١) من الخطبة رقم (٢٨)، الصفحة (٩٣، ٩٤)، نهج البلاغة.

جائزة أو رهنٍ إذا سبق المتسابق . وعلى كلا الحالين فقد ذكر السبقة الجنّة، وإنّما تكون السبقة لشيءٍ محبوب، وذكر الغاية النار ولم يقل والسبقة النار، والنار ليس بالشيء المحبوب، أما الغاية فقد ينتهي إليها من لا يسرّه الانتهاء أو من يسرّه ذلك. لذا خالف بين اللفظتين لاختلاف المعنيين.

ثمّ يؤكّد أنّ منْ عمل في حياته وأيام أمله وادّخر صالح الأعمال لما بعد ذلك وقبل حضور الأجل والانتقال من الدّنيا حيث لا عمل بعدها، هو المنتفع من عمله وما ادّخره منه ولا ضرر عليه في حلول أجله، لأنّه لديه ما ينفعه ويرفعه من الأعمال. وبعكسه من لم يدّخر من العمل وقصّر فيه في الدنيا وفي أيام الأمل وقبل أن تحضر ساعة الأجل حيث لا عمل بعد ذلك، فقد خسر عمله، لأنّه لم يُحسن الاختيار فيه ولم يأخذ بالنافع منه الموصل إلى السبقة والجائزة. وضرّه حلول الأجل لتفويته الفرصة الممنوحة له في أيام الأمل ولم يستغلّها، حتى باغته الأجل الذي لا مفرّ منه.

قال الشريف الرضي ﷺ عن هذا الكلام:

«لو كان كلامٌ يأخذ بالأعناق إلى الزهد، ويضطرُّ إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام. وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتّعاظ والازدجار... وإنّ فيه مع فخامة اللفظ، وعِظَم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه، سرًّا عجيباً، ومعنًى لطيفاً».

وذكر توضيحه وشرحه لمعاني الكلمات.

وأما قوله ﷺ: فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة، أي لا تصرفكم النعَم عن الخشية من الله، فاعملوا في سرّائكم كما في ضرّائكم. ومن المعتاد أنّ المرء لو أصابه ضرٌّ من خوف أو مرض أو

عدو، فهو شديد الإخلاص في العمل والعبادة والتضرّع، حاله مثل راكب السفينة تتلاعب بها الأمواج ويهدّدها الغرق والهلاك.

فهو منقطع إلى الله لاجيءٌ إليه، ومجرد وصول السفينة إلى شاطىء الأمان عاد إلى ما كان عليه.

فهو عليه السلام يوجّه المكلّف أنْ يعمل في الأيام الخالية من الخوف بمثل الانقطاع والإخلاص والجدّيّة في أيام الخوف والعوارض وحلول الصعاب.

وممّا يؤثر عن أبي حازم الأعرج ـ عاش في أيام عمر بن عبدالعزيز ـ وقد قال له: يا أبا حازم، إنّي أخاف الله ممّا دخلتُ فيه ـ يقصد تولّيه الخلافة ـ فقال له أبو حازم: لستُ أخافُ عليك أنْ تخاف، وإنّما أخافُ عليكَ ألّا تخاف.

ونقل عن بكر المزنيّ قوله: ما الدنيا ليت شعري، أمّا ما مضى منها فحلم، وأمّا ما بقي فأمانيّ.

ومن كلام سفيان الثوري: جوارحك سلاح الله عليك، بأيّها شاء قتلك.

ومن قول علي عليه السلام: منْ لم يستقم به الهدى، يجُرَّ به الضَّلالُ إلى الردى.



أصناف النّاس

يقول عليه السلام: [فالناسُ على أربعة أصنافٍ: منهم من لا يمنعه الفسادَ في الأرض إلّا مهانةُ نفسه وكلالةُ حدّه، ونضيضُ وَفْره. ومنهم المصلتُ لسيفه، والمعلنُ بشرّه... قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطامٍ ينتهزه أو مِقنَبٍ يقوده، أو منبرٍ يفرعُه...

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه... واتّخذ سرّ الله ذريعةً إلى المعصية.

ومنهم منْ أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه... فتحلّى باسم القناعة، وتزيّن بلباس أهل الزّهادة، وليس من ذلك في مراحٍ ولا مغدًى][1].

هذه أصناف أربعة، ثمّ ذكر قسم خامس فقال: [وبقي رجالٌ غضَّ أبصارهم ذكْر المرجِع][2]. فالأقسام الأربعة للناس المعروفين عند العامة. أمّا القسم الخامس فلا يعرفهم إلّا أمثالهم، والذين هم بنفس أحوالهم. لذا ميّزهم عن باقي الأصناف وأفردهم. وهم الذين غضّوا أبصارهم عن مطامع الدنيا خوفاً من الله وتحسّباً للآخرة والحساب.

أمّا الأقسام الأربعة فهي لطلّاب الإمرة والساعين إليها. فيكون:

---

(١) من خطبة له في جور الزمان، رقم (٣٢)، الصفحة (١٠٠، ١٠١)، نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر السابق، الصفحة (١٠١).

القسم الأول: الذي يمنعه عن طلب الإمرة، حقارة نفسه وضعفها. فلا يجد من يعينه أو ينصره. وكلالة الحدّ: ضعف السلاح، وعدم قدرته عن القطع في الأعداء. يُقال كلَّ السيف، إذا لم يقطع، كناية عن عدم وجود السلاح أو ضعف استعماله.

ونضيض وفْره: قلّة ماله، فالنضيض: الشح أو القلّة. والوفر: المال.

والقسم الثاني: طالب الإمرة والرئاسة وهي ليست من حقّه ولا من شأنه، فيلجأ إلى سيفه ليسلّه على كل من يعترضه، أو لا يسمع لسلطان الباطل. والمعلن بشرّه: أي يُظهر هذا الشر ويهيء نفسه ويعدّها للفساد بالأرض. أو لسوء العاقبة، فيوبق دينه: أي يهلكه لأجل الحطام وهو المال، وأصله ما تكسّر من اليابس تهويناً له وحطّاً لقدره كونه لا يدوم. والمقنب: المجموعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين، يقودها لطلب العزّة والتكبّر على الناس. ومنبراً يفرعه: أي يعتليه ويخطب على الناس، وما في اعتلاء المنابر عند البعض من الرفعة والسمعة. وهذا القسم قد أضاع دينه وأفسد الناس معه في طلب هذه الأمور لأجل إشباع الشهوات وإرضاء المطامع.

والقسم الثالث: من يُظهر ناموس الدّين ويطلب به الدنيا، فهو يؤدّي الأمور الدينية لا لأجل كونها واجبة الأداء، وتحميه من عذابات الآخرة وحسابها، ويعمل بأعمال الدنيا من بيع أو شراءٍ أو خدمة يؤديها، لا لأجل الآخرة أو ما يوصله إلى ثواب تلك الأعمال وصدقها وأمانتها، وإنّما لإشباع رغباته وإرضاء نفسه. طامن من شخصه: أي خفّض ومشى رويداً، وقصّر من ثوبه، ونمّق وزيّن وزخرف من نفسه للأمانة، من غير صدقٍ في عمله أو جدّ، ومَنْ حاله كذلكْ يظنُّ أنّ عبادته ستر له، فيتّخذ ذلك وسيلة لمعاصيه وفساده.

والقسم الرابع: هو منْ تنقطع أسبابه كلّها، فيخلد إلى القناعة ويتحلّى بحلية الزهادة عن الدنيا، لعدم قدرته على الحركة، ويحسب نفسه زاهداً وليس منها، ولا هو بزاهد على الحقيقة. وأمّا القسم الذي أفرده ولم يجعله مع الأقسام الأربعة، فهم الأبرار الأتقياء والعارفين الأصفياء. ولتمايزهم واختلافهم عن سواهم في كلّ شيء جعلهم لوحدهم، فطريقهم وغايتهم وطلبهم غير طريق وغاية وطلب الآخرين.

خاصف النعل:

قال عبدالله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: [ما قيمة هذا النعل؟] فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: [والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلّا أنْ أقيمَ حقًّا أو أدفع باطلاً][1].

حصل هذا وأمير المؤمنين عليه السلام، حاكم على دولة امتدّت أطرافها شرق الأرض وغربها. وكان يُجبى لها الخراج، من كلّ مكان، وتدخلها الأموال الكثيرة، وخزائنها عامرة.

بالطبع فإنّه لا يُطلب من أحدٍ أنْ يخصف نعله بيده. ولم يكن الأمر متعلق بالحالة ذاتها، ولكنّها عبرة يقتضي التنبه لها ومعرفة أبعادها ومدلولاتها، فيعزف البعض عن قليل من الترف الزائف والبذخ المبالغ، ويأخذوا ببعض أحكام وثقافة القناعة ونظافة الروح وسمو الأخلاق وحسن الطباع.

روى محمد بن فضيل عن هارون بن عنترة، عن زاذان قال: انطلقت مع قنبر غلام علي عليه السلام فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين، فقد

---

(١) من كلام قاله عليه السلام عند خروجه إلى البصرة، رقم (٣٣)، الصفحة (١٠٣)، نهج البلاغة.

خبأتُ لك خبيئاً، قال: وما هو ويحك! قال: قم معي، فانطلق به إلى بيته، وإذا بغراوة مملوءة من جاماتٍ ذهباً وفضّة، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلّا قسمته، فادّخرت لك هذا من بيت المال، فقال عليه السلام: ويحك يا قنبر! لقد أحببتَ أن تُدخل بيتي ناراً عظيمة. ثمّ سلَّ سيفه وضربه ضربات فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه وآخر ثلثه، ونحو ذلك، ثمّ دعا بالناس، فقال: أقسموه بالحصص، ثمّ قام إلى بيت المال، فقسَّم ما وجد فيه، ورأى في البيت أبراً ومسالّ، فقال: ولتقسموا هذا، فقالوا: لا حاجة لنا فيه، فضحك، وقال: ليؤخذنّ شرّه مع خيره[1].

وروى مجمّع التيميّ قال: كان علي عليه السلام يكنس بيت المال كل جمعة ويصلّي فيه ركعتين، ويقول: ليشهد لي يوم القيامة[2].

وروى مُجمّع، عن أبي رجاء، قال: أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السوق، فقال: من يشتري منّي هذا؟ فوالذي نفسُ عليٍّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار ما بعته، فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأُنسئُكَ ثمنه إلى عطائك، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاءه، دفع إليّ ثمن الإزار[3].

وروى هارون بن سعيد قال: قال عبدالله بن جعفر بن أبي طالب لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة، فوالله ما لي نفقة إلّا أنْ أبيع دابّتي، فقال: لا والله ما أجد لك شيئاً إلّا أنْ تأمر عمّك أنْ يسرق فيعطيك[4].

---

(١) (٢) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، طباعة الدار اللبنانية للنشر، الجزء الثاني، الصفحة (٣٥٥، ٣٥٦).

(٣) (٤) نفس المصدر السابق، الصفحة (٣٥٦).

وروى بكر بن عيسى، قال: كان علي عليه السلام يقول: يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن. فكانت نفقته تأتيه من غلّته بالمدينة بينبع، وكان يُطعم الناس منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت[1].

(١) نفس المصدر السابق، الصفحة (٣٥٦).



الضعيف والقوي

يقول عليه السلام: [الذليلُ عندي عزيز حتى آخذ الحقَّ له، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحقَّ منه][1].

أي أنّه يقوم بإعزاز المظلوم ونصره، ويقوّي يده حتى يأخذ له الحقّ من الذي ظلمه أو ذلّه، ثمّ يعود إلى الحالة التي كان عليها قبل أنْ يعزّه وينصره.

وكذلك القوي الظالم، يقهره ويذلّه إلى أنْ يأخذ الحقّ منه ويعيده إلى من ظلمه، ثمّ يعود أيضاً إلى حاله قبل أنْ يُقهره ويستضعفه.

وهذه صفة الحاكم العادل، الذي لا تأخذه في إحقاق الحقّ وإجراء العدل لومة لائم، ولا يهادن في نصرة المظلوم والوقوف إلى جانبه حتى يأخذ له حقّه من ظالميه، ويُطبّق هذا حتى على نفسه أو المقربين منه، فهم في إجراء العدل سواء. ولا أثرة أو مهادنة أو تسامح في الحقوق، والكل سواء أمام حكم العدل وقانون الحقّ.

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٧)، الصفحة (١١١)، نهج البلاغة.



معنى الزهد

قوله ﷺ: [الزهادة قصرُ الأمل، والشكر عند النّعم، والورع عند المحارم. فإنْ عَزَبَ ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النّعم شكركم][1].

فسر ﷺ الزهد بثلاث أمور: قصر الأمل، أي الاستعداد إلى الموت بالعمل، وليس المراد انتظاره بالبطالة.

والثانية: الشكر عند النعم: بالاعتراف أن جميع النّعم من الله سبحانه، ثمّ التصرّف بتلك النعم حسب ما أمر الله من الحلال ووفق أداء حقوقها.

والورع عند المحارم: بالكفّ عن الشبهات فضلاً عن المحرمات. فإنْ عَزَبَ عنكم: أي بعد عنكم وفاتكم، والمقصود به «قصر الأمل» فلا بدّ من اثنين وهما: الورع وشكر النعم، فقد جعلهما أهم من قصر الأمل. ذلك أنّ عدم الشكر يدفع إلى البطر وارتكاب الحرام. وعدم الورع يُفسد نظام الحياة.

فإذا اجتمع البطر والفساد، يكون مجابة للنّقم في الدنيا والشقاء والحساب في الآخرة.

---

(١) من كلام أمير المؤمنين ﷺ، رقم (٨٠)، الصفحة (١٥٨)، نهج البلاغة.

قيل لعلي بن الحسين عليه السلام: من أعظم الناس خطراً؟ قال: من لم ير الدنيا لنفسه خطراً.

وعن محمد بن الحنفية قوله: من عزّت عليه نفسه هانت عليه الدنيا.

وقال المأمون: لو سُئلت الدنيا عن نفسها لم تسطِع أن تصف نفسها بأحسن من قول الشاعر:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

صفة الدنيا

قوله عليه السلام: [من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته][1].

عقّب الرضي رحمه الله على هذا الكلام فقال: وإذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام: ومن أبصر بها بصّرته، وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يُبلغ غايته ولا يُدرك غوره، لا سيما إذا قُرن إليه قله: ومن أبصر إليها أعمته. فإنّه يجد الفرق بين «أبصر بها» و«أبصر إليها» واضحاً نيّراً، وعجيباً باهراً.

وأبصر بها: أي اعتبر، وجعل الدنيا مرآة تكشف له مواطن الخير والعمل الصالح وتوضح عواقب أهل الشر والفساد. فتكون الدنيا بمثابة البصر له، وتصبح من خلال هذا البصر الحوادث والمثلات عبر يعتبر بها.

والذي أبصر إليها وألهاهُ زبرجها واشتغل بها، فإنّه يعمى عن النظر إلى العواقب ولا يعتبر.

نظر ابن أبي الحديد إلى قوله هذا فقال:

دنياكَ مثلُ الشمس تُدني إليـ	ـك الضوءَ لكن دعوة المهلكْ
إنْ أنتَ أبصرتَ إلى نورها	تَغشَ، وإنْ تبْصِرْ به تُدركْ

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٨١)، الصفحة (١٥٩)، نهج البلاغة.

وعن الدنيا ولذاتها قال أحد الشعراء:

حــلاوةُ الــدنــيــا ولــذاتُــهــا تــكــلّــفُ الــعــاقــلَ مــا لا يُــريــدْ

التسوية:

قوله عليه السلام: [ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذيرٌ وإسراف، وهو يرفعُ صاحبه في الدنيا ويضعهُ في الآخرة، ويُكرّمه في الناس ويُهينُهُ عند الله، ولم يضع امرؤٌ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلّا حَرَمهُ الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم][1].

إنّ من الأمور المؤثرة في نفس الإنسان، الشعور بالغبن والإحساس بالفوارق المصطنعة والحواجز التي يختلقها البعض بأيديهم. ويتأتّى هذا الشعور من سوء التوزيع للثروات والتمايز والتفريق الحصل، لا على أساس الجهد أو الكفاءة ولكن بلحاظ الأَثَرة والمحسوبية أو الولاء والانتساب. فتحصل الفوارق في المستوى المعاشي للمجتمع الواحد بصورته الحادّة والمؤثرة، وتترسّخ هذه الفوارق فتتحول إلى أمر واقع ليصبح معولاً يهدم دعائم وكيان المجتمع.

ولا يخفى ما تصنعه هذه الفوارق من أمراض اجتماعية ومتاعب نفسيّة عند الناس والمجتمع ومشاكل اقتصادية وسياسية ، لتصل إلى درجة الصراع والخراب.

إنّ الأخطاء التي يقع بها المشرعون وواضعو الأنظمة والقوانين في بلدانا، وخصوصاً في مجال الاقتصاد والمال، لها أثرها السلبي والكبير، ما يتطلب الانتباه المبكّر والإسراع في معالجة هذه الآثار وتدارك الضرر الحاصل منها. فالفوارق الهائلة في الأجور وبين طبقات

(١) من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (١٢٤)، الصفحة (٢٧٢)، نهج البلاغة.

الوظائف الحكومية، والأرقام المخيفة لرواتب المراكز السيادية وما يُدعى بالنّخبة، من أفدح وأسوء الأخطاء التي مارسها المشرع في مجال الاقتصاد. فبالإضافة إلى ما تخلفه هذه الأرقام من العبء الثقيل على ميزانية الدولة، فهي في طريق خلق طبقة أرستقراطية وقوّة مالية للأفراد، ووضع لم يكن مجتمعنا «وأقصد العراقي» متعوّد عليه، أو قابل للتعايش مع حالته، والرضوخ إليه. والمخاوف من الإمكانات والوسائل التي ستملكها هذه الطبقة وقدرتها على تحريك الأمور لصالحها، والمجتمع في أوّل خطواته في طريق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وسيكون من الصعب والعسير التراجع أو التخفيض من تلك الأرقام ومحاصرتها.

ونحن عندما نتناول موضوع الراوتب، لا يعني أنّ هذه المسألة أكبر الهموم الاقتصادية والأخطاء المرتكبة، ولكنّه مثلٌ قدّمناه لمجموعة لا يُستهان بها من المشاكل والمعوقات الموجودة والتي لا يمكن نكرانها، مع أنّ مثل هذه المواضيع تحتاج لبحوث منفردة ومجهودات ليست باليسيرة.

ومن وجهة نظرنا لمجموع الأسباب والعوامل الدافعة إلى إفشاء الفساد الإداري في مفاصل الدولة والمجتمع، أقدمنا على ذكر هذا الموضوع ورجّحنا أهميته في ثقافة النزاهة ومشروع الإصلاح الاجتماعي عموماً.

إنّ الدول في بداية نهوضها وأول مراحل بنائها وتأسيس مرافق مجتمعها المدني، تحتاج إلى عمل ومجهود جبّار، فتقوم حكوماتها باستنفار كل الطاقات واستغلال جميع الإمكانات البشرية والمادية وغيرها في هذا السبيل. واعتبار أول اهتماماتها عدم التفريط في الناتج القومي وما يدخل للبلد من واردات. خصوصاً وأنّ بلادنا تعتمد بالدرجة الأولى

على النفط في وارداتها المالية، وقلّة البدائل أو انعدامها في بعض البلدان بهذا المجال.

من هذا الواقع، فإنّ عملية التقنين في المصروف يجب أن تكون على أفضل ما يكون، وبدرجة عالية من الالتزام والحذر والدراسة.

فإذا جمعنا الحاجة الكبيرة لإعادة البنى التحتية وتحسين الخدمات، وتأخيل المشاريع والإعمار مع حساسية وأحادية الوارد المالي للبلد، صار لزاماً اعتماد مبدأ الأهم ثمّ المهم. والانتباه الشديد عند صرف المال لوضعه في محلّه الذي يستحق والذي يجب أن يكون فيه.

لا يخفى على أحد أنّ بلدنا تنقصه أشياء كثيرة جداً، ومن الصعوبة إنجاز ما يحتاجه البلد دفعة واحدة، والأمر بحاجة إلى الصبر والانتظار.

ولكن المنجز على الأرض والواقع بعد مرور سنواتٍ ليست بالقليلة، شُكّلت فيها حكومات جاءت بالاقتراح لكي تعمل على إنجاز ما عُهد إليها من مهام، ثمّ تأتي حكومات أخرى لتنجز مهام أخرى، وهكذا حتى يتم البناء وتزول المعوقات. هذا المنجز المتوقع كان أقلّ من القليل، وفي كثير من أحواله أهمل أموراً في غاية الأهمية والحساسية لتماسّها مع الناس مباشرة وتأثيرها فيهم.

كمشاكل التصحّر، وانحسار الزراعة، وتأخر الإنتاج الزراعي والحيواني والغذائي في البلد، ومسألة إعادة تأهيل الأهوار وبناء السدود والمشاريع الإروائية ومكافحة شحّة الماء، وعزوف أصحاب المشاريع الزراعية وتربية الحيوانات والدواجن وغيرها عن إعادة وتأهيل أو إنشاء مثل هذه المشاريع الحيوية المهمة، لعدم توفّر أدنى شروط العمل والاستمرار فيه بهذا المجال. والبطء الشديد في تأخيل المصانع والمشاريع الصناعية الكبرى، والموانيء والطرق والجسور، والكهرباء.

والإخفاق المخجل في معالجة مشكلة الإسكان وعدم الالتفات إليها إلّا ما ندر من المشاريع البسيطة التي لا ترقى إلى حجم المشكلة المستديمة والمزمنة.

حتى أصبح سعر العقارات عندنا أعلى بمراحل من جميع بلدان العالم بما فيها بلاد الغرب وأوروبا.

ثم الإجحاف والتقصير الكبير في القطاع الصحي، وضعف الموارد المنشّطة لهذا القطاع الحيوي والمتعلق بأرواح الناس وصحتهم. وعدم وجود الدراسات العلمية للمسح السرطاني في عموم البلاد مع الارتفاع الملحوظ للإصابة بالأمراض السرطانية، وتأثيرات الحروب واستخدام الأسلحة ومخلفات هذه الأسلحة وعملها في مجال الإصابة بهذه الأمراض الخطيرة.

والاهتمامات اليتيمة والغير مجدية في بعضها في مجال الرعاية الاجتماعية واحتواء الأعداد الكبيرة من المقعدين والعاجزين والمحتاجين، مع الارتفاع الكبير بنسبتهم في البلاد وكذلك نسبة الأرامل واليتامى، وهو واقع طبيعي للحروب والنزاعات التي أُقحم البلد فيها. ما يستدعي اهتماماً استثنائياً، وذلك لحجم المشكلة وحساسيتها وعلاقتها بمشاعر الناس وكرامتهم، وحقّهم في العيش الكريم وعدم الاحتياج أو الحرمان.





أداء الأمانة

يقول عليه السلام: [ثمَّ أداء الأمانةِ، فقد خاب من ليس من أهلها][1].

الأمانة: كلّ شيء اؤتمنت عليه، وأداؤها: عقدها الواجب الوفاء به. والأمانة ثقيلة، وحاملها في خطر عظيم. وخطرها من مسؤولية أدائها، وهي من الثقل وصعوبة المحمل، ما لو عرضت على السماوات والأرض والجبال لامتنعت من حملها.

كما تذكر الآية الشريفة[2]، وعرضها على السماوات والأرض والجبال، وهي من الجمادات، لتعظيم شأنها، كما تقول: هذا الأمر لا تحمله الجبال.

إنّ كلّ أمر أو مسؤولية تعرض على الإنسان أمانة، وهو ملزم بأدائها. فالعمل أمانة، والوظيفة أمانة، والمنصب أمانة، وتشريع القوانين والأنظمة أمانة، والأموال أمانة.

ومن امتُحن بإحدى هذه الأمور أو غيرها من الأمانات، وتعاقد عليها، كان لزاماً عليه أنْ يؤدّيها على وجهها الصحيح، ودون أن يُخلَّ بشيءٍ من شروطها أو بنودها أو أحوالها.

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، يوصي به أصحابه، رقم (١٩٧)، الصفحة (٤٣٢)، نهج البلاغة.

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٧٢).

إنّ خيانة الأمانة توجب المذمّة وسوء العاقبة والخيبة والخسران، كما يذكر أمير المؤمنين عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[2] أي حافظون.

وقال رسول الله ﷺ: أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. صدق رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة النساء، الآية (٥٨).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٨).

أئمَّة العدل

قال عليه السلام: [إنّ الله فرض على أئمّة العدل أنْ يقدّروا أنفسهم بضعفةِ الناس كيلا يتبيَّغ بالفقير فقرُهُ][1].

يقدّروا أنفسهم: أي يشبّهوا أنفسهم بالفقراء.

يتبيّغ: يهيج.

إن تشبّه أئمة العدل بالضعفاء والتمثّل بهم، مدعاة للأغنياء أنْ يقتصدوا، ويعدلوا عن الترف والإسراف. ويعملوا على صرف الأموال في مضانّها وفي أعمال الخير والصلاح. وحتى لا يهيج بالفقير ألم الفقر والحاجة والحرمان، لأنّه إذا رأى الفقير إمامه على تلك الحالة من المطعم والملبس يسلو عن اللذات، وما في أيدي الأغنياء من الترف، ويرضى ويقنع بالحال الذي هو فيه. نعم إنّما يُراد من الإمام أو الحاكم أو المسؤول عدله وإنصافه وأمانته، إلّا أنّ الإسراف في الترف يثير مشاعر الذين لا يجدون من أسباب الحياة الطبيعية الكريمة شيئاً، فضلاً عن مادة الترف وشؤونها.

والله سبحانه لم يحرّم مطعماً أو ملبساً، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3].

---

(1) من كلامه عليه السلام، رقم (٢٠٧)، الصفحة (٤٤٠)، نهج البلاغة.

(2) سورة الأعراف، الآية (٣٢).

(3) سورة الضحى، الآية (١١).

إلّا أن التوازن، وانتهاج الطريقة الوسطى وعدم المبالغة في الإنفاق هو المطلوب، والأمثل في الإنسان.

ونحن نرى بوضوح مآثر المترفين واضحة في عيون الجياع ومشاهدات الموت الجماعي واليومي في مناطق من العالم. والمناظر المأساويّة التي أقلّ ما يُقال عنها أنّها مخجلة في سجل الإنسانية، ومرعبة في خواطر البشر، ومؤلمة في حسابات الزمن والتأريخ. ومن الدول «الكبرى» من تعمل على رفع أسعار الحبوب والغذاء، أو تختلق الأزمات الماليّة وتصدّرها لعموم العالم وسكان الأرض، فيجني ثمار هذه الأزمات وتبعاتها الضعفاء. وإذا أُقيم مقامٌ للحديث عن حقوق الإنسان والعدل كانوا أوّل المتحدّثين والمنظّرين. ثمّ يتدخلوا في مصائر الشعوب ومقدراتهم، ويصل تدخّلهم إلى إجبار حكام هذه الدول على رفع أسعار الغذاء والبضائع والخدمات، إمعاناً بإذلال الناس، وتأكيداً لقدرتهم وعنجهيّتهم في السيطرة والتكبّر.

التبرّؤ من الظلم

قوله عليه السلام: [والله لأنْ أبيتَ على حَسَكِ السَّعْدانِ مُسهَّداً، وأُجَرَّ في الأغلالِ مُصفَّداً، أحبُّ إليَّ من أنْ ألقى الله ورسولهُ يومَ القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيءٍ من الحطام][1].

السعدان: نبتٌ ترعاه الإبل له أشواك، يقال له: حَسَك وحَسَكه السعدان. مسهّداً: الذي لا ينام. والأغلال: القيود. ومصفداً: أي مكبّل. والحطام: متاع الدنيا وعروضها. وشبّه متاع الدنيا بالحطام، لسرعة ذهابه كتحطّم وتكسّر العيدان.

ثم يقول عليه السلام: [والله لو أُعطيتُ الأقاليم السَّبعة بما تحت أفلاكها على أنْ أعصيَ الله في نملةٍ أسلبُها جِلبَ شعيرةٍ ما فعلت][2].

لو أُعطيت وما بعدها: كناية عن عظم ما لو يُعطى.

والجِلب بكسر الجيم: القشرة، والجُلب أصله قشرة الجرح أو ما يعلوه من الجلدة. ويُسمّى أيضاً غطاء القتب جُلبة.

هذين المقطعين من ضمن كلامٍ له عليه السلام، يصف فيه حال أخيه عقيل وأولاده، وهو يراه قد أملق حتى استماحه من البرّ صاعاً ـ والصاع أربعة

---

(١) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٢١)، الصفحة (٤٦٧)، نهج البلاغة.
(٢) نفس المصدر السابق، الصفحة (٤٦٨، ٤٦٩).

أمداد، والمدُّ رطل وثلث الرطل فمجموع ذلك خمسة أرطال وثلث الرطل ـ ورأى صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان من فقرهم، كأنّما سوّدت وجوههم بالعظلم (والعظلم: الوسمة، أو نبتٌ يُصنع به ما يُراد اسوداده)، ويعاوده مؤكداً، ويكرر القول عليه مردّداً، فيصغي إليه سمعه، حتى ظنَّ أنّه يبيعه دينه، ويتبع قياده مفارقاً لطريقته.

فأحمى له حديدة، ثم أدناها من جسمه ليعتبر بها، فضجَّ ضجيج ذي دنفٍ (أي ذي سقم) من ألمها، وكاد أن يحترق من مِيسمها (أي المكواة).

فقال له: ثكلتك الثواكل: أتئنُّ من حديدةٍ أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني إلى نارٍ سجّرها جبّارها لغضبه! أتئنُّ من الأذى، ولا أئنُّ من لظى؟ (لظى اسم لجهنم).

بهذا الحزم من الأمانة والنزاهة، عامل أمير المؤمنين عليه السلام، عقيل. فليس لعقيل ولا لغيره عند الحاكم العادل غير ما يستحق. ولن تكون صلة القرابة أو غيرها حافزاً له ليعطيه ما يطلب أو يخالف طريقته في إجراء العدل والمساواة بين الخلق. هي إذاً العدالة المطلقة والنزاهة الكاملة والأمانة، يُجريها سمو الخلق ورفعة النفس وسلامة الضمير والوجدان.

وليس يُطلبُ من كلّ حاكم أن يتعامل بمثل ما تعامل به أمير المؤمنين مع أخيه. وذاك من الصعب تحقيقه، لكنّه درسٌ في مسيرة الحياة الإنسانية، يهدي إلى سمو النفس وقدرتها على أداء الواجب وتحقيق شروط الأمانة التي التزمتها بهذا الشكل المثالي والروح والعزيمة القوية المتمكّنة.

هو إيقاظ للنفوس النائمة على فرش الترف، والعقول المتخمة

بأحلام البقاء، والأرواح المولعة بعشق المال والعقار. هو أيضاً لحظة تأمّل للشعوب المحرومة المبتلاة، لتجد مبرراً حتى تسأل الحكّام والمترفين: كيف ومن أين ومتى جمعوا، كم إنسان ظلموا وحرموا حتى صار عندهم كل هذا الخزين؟ كم كان بخلهم حتى وصلوا لهذا المقدار من المال؟

والراصد يسأل: ماذا صنعت هذه الخزائن؟ ولو كان الخازنون وما هم فيه، يُفتدى بجميعه لما بخلوا به الآن، والآن فقط. ولات حين مناص، فقد ضاع الخازن والمخزون، ولم تبقى سوى ذكرى، ويا لها من ذكرى! وهل يتذكر إلّا أولي الألباب؟

وللزمن في عقيل عبرة.

ويذكر عليه السلام في نفس الخطبة، من جاءه يريد استمالته بالهدية لغرض دنيوي، وهو يفطن لذلك، وإلّا لقبل الهدية، وقد قبل النبي صلى الله عليه وآله الهدية، وهو عليه السلام قبلها أيضاً. يُذكر أنّه دعاه بعض من كان يأنسُ إليه من أهل التقوى إلى حلواءَ عملها يوم نوروز، فأكل وقال: لم عملتَ هذا؟ فقال: لأنّه يوم نوروز، فضحك وقال: نورزوا لنا في كلّ يوم إن استطعتم.

فكان عليه السلام من اللطافة وسماحة الخلق والشّيم على قاعدةٍ عجيبة، لكنّه كان ينفر ممّن يحاول أنْ يصانعه بالهدية عن مال المسلمين. وهيهات حتى يلين لضرس الماضغ الحجر.

فيصف عليه السلام هذه الحالة ويقول: [وأعجب من ذلك طارقٌ] طرقنا بملفوفة في وعائها (حلواء أهداها إليه الأشعث)، ومعجونة شنئتُها (أي كرهتها)، كأنّما عُجنت بريق حيّة أو قيئها (كناية عن نفرته من أكلها)، فقلت: أصِلة أمْ زكاة أمْ صدقة، فذلك محرّمٌ علينا أهلَ البيت.

فقال: [لاذا ولا ذاك ولكنّها هدية» فقلت: هبلتك الهَبول (دعاء له

بالفناء)، أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختَبِطٌ أنت (أي مصروع)، أمْ ذو جِنّة (المجنون)، أمْ تهجر (أي تهذو). والله لو أعطيت الأقاليم. . .][1] وأكمل الحديث الذي ذكرناه.

لكنّ البعض يصرّف الرشوة بتصريف مغاير لحقيقتها، كي يُبيحها لنفسه ويطمئن بها، وما كانت الهدية المقدمة للموظف أو المسؤول ويُراد بها غاية معينة إلّا رشوة محرّمة، وما يتقبّلها إلّا طامع لا مروءة له، أو ناكل للأمانة التي بين يديه.

وما بال من يُقدم على الظلم بدم بارد، يرقد مغمض العين، فوق نسائج القزّ، لا حَسَك السعدان، من غير أنْ يفكر بلقاء الله وهو ظالمٌ لعبيده، أو غاصب للحطام!

لا للمحاباة:

قدم على أمير المؤمنين في خلافته، عبدالله بن زمعة، وهو من شيعته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام: [إنَّ هذا المال ليس لي ولا لك، وإنّما هو فيءٌ للمسلمين وجلبُ أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم، كان لك مثلُ حظّهم، وإلّا فجناةُ أيديهم لا تكون لغير أفواههم][2].

الفيء: الغنيمة أو الخراج. والجلب: المال المجلوب.

وروي أن شريح بن الحارث أحد قضاته، اشترى على عهده داراً فبلغه ذلك فاستدعاه وقال له: [بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً.

(١) من كلامه عليه السلام، رقم (٢٢١)، الصفحة (٤٦٨)، نهج البلاغة.
(٢) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٢٩)، الصفحة (٤٧٧)، نهج البلاغة.

فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه نظر مغضب، وقال له: ... فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك][1].

الإمام يتعامل مع أتباعه والعاملين في الدولة بهذه الصرامة وقوة المراقبة والمحاسبة، ليروّضهم ويؤدّبهم بآدابه وآداب رسول الله ﷺ، ويعوّدهم على العفّة والنزاهة وصيانة الأمانة، وعدم الانصياع لرغبات النفس وشهواتها، حتى لا تبعدهم عن طريق الحقّ والعدل.

وهو في كل هذا يسبقهم إلى ذلك ويعمل به هو وأولاده وأقرباءه. يقول عليه السلام: لا أنهاكم عن شيء إلّا وكنت أول المنهيين عنه. ولا آمركم بشيء إلّا وكنت أول العاملين به فهو قدوة لهم، ويريدهم أن يكونوا قدوة للآخرين.

إنّ شراء دار أو بيعها لا بأس فيه ولا ضرر، إلّا أنّ مفاهيم المدرسة العلوية تريد من طلابها أصحاب أيادٍ بيضاء منصفة تحيا في العفّة والصلاح، لتعمل على البناء والإصلاح.

وأصحاب نفوس روّضتها روح التقوى والأمان، ودرّبتها قيم العدل والضمير. وقد تُرجمت هذه المفاهيم بالقول والعمل، منه ومن أقرب الناس إليه. يقول عليه السلام أيضاً: [إنّي والله ما أحثكم على طاعة إلّا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلّا وأتناهى قبلكم عنها][2].

---

(١) من كتاب له كتبه لشريح قاضيه، رقم (٢٤١)، الصفحة (٤٩٢)، نهج البلاغة.

(٢) من خطبة له في الموعظة، رقم (١٧٣)، الصفحة (٣٥٢)، نهج البلاغة.



كتبه والأمانة

«إن الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه، وما أُحلَّ لكم أكثر مما حُرّم عليكم. فذروا ما قلَّ لما كثُر، وما ضاق لما اتّسع»[1].

بهذه اللهجة المتفائلة، والعبارات الصافية، يُخاطب الناس، ويرشدهم إلى الصواب، ويمنحهم فرص الخلاص.

مناهج ينتشل بها الأرواح من جماحها في التيه، ويُنير بصائرها إلى التقوى، ليصونوها ويتصوّنوا بها. ويهديهم أن يكونوا نُزّاهاً في الدنيا، والعمل الصالح حرزهم، والورع جُنّتهم.

نتناول مجموعة من كتب أمير المؤمنين إلى عماله، اخترناها من بين كتبه ورسائله الكثيرة، وهي تصبُّ في مواضيع متعلقة بعملهم وأماناتهم، ومراقبته وتوجيهه وإرشاده لهم. وهي بنفس الحال دليل إرشادٍ لكل نفس تسعى إلى الصلاح وتعمل بروح النزاهة والعدل.

من كتاب له عليه السلام إلى عامله على آذربيجان، الأشعث بن قيس يقول فيه: [وإنّ عملك ليس لك بطعمة، ولكنّه في عنقك أمانة، وأنت مُسترعًى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في الرعية، ولا تخاطر إلّا بوثيقة، وفي يديك مالٌ من مال الله عزّ وجلّ، وأنت من خزّانه، حتى تسلّمه إليّ، ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك، والسلام][2].

---

(1) من خطبة له عليه السلام، رقم (١١٣)، الصفحة (٢٥٢)، نهج البلاغة.

(2) من كتاب له عليه السلام، رقم (٢٤٣)، الصفحة (٤٩٤)، نهج البلاغة.

الطعمة: المأكلة، يقال: فلان خبيث الطعمة، أي رديء الكسب.
وتفتات: تستبد.

يقول له: عملك أمانة في عنقك وأنت رعية لمن فوقك وهو الخليفة، فلا يحق لك أن تستبد في الرعية الذين ترعاهم ولا تأكل أموالهم، فالمال ليس لك طعمة فتأكلها.

ولا تقدم على أمر فيه شبهة أو تخاف منه، وعليك أن تحتاط في أمر المال فهو مال الله وأنت خازن له.

ومن تولّى أمر الناس فهو حارس على حقوقهم مسؤول أمامهم، وهو مؤتمن والناس أمانته، وأداء الأمانة أداء الحقوق.

سُئل أنوشيروان: أيُّ الجُنن أوقى، قال: الدين، وأيُّ العُدد أقوى، قال: العدل.

ومن كتاب له إلى زياد، وقد خلف عبدالله بن عباس على البصرة: [وإني أُقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدّنَّ عليك شدّةً تدعكَ قليلُ الوفْر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر والسلام][1]. يهدّده بالأخذ واستصفاء المال إنْ وجد عنده خيانة في أموال الناس مهما كان صغيراً، تدعه قليل الوفر: أي فقيراً بأخذ المال الذي في حوزته، وثقيل الظهر: أي عاجز عن مؤونة نفسه. ضئيل الأمر: خامل الذكر ضعيف الحال.

ومن كتاب له أيضاً: [فدع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وامسك من المال بقدر ضرورتك، وقدّم الفضل ليوم حاجتك. أترجو أن يُعطيك الله أجر المتواضعين، وأنت عنده من المتكبرين!

---

(١) من كتاب له ﷺ، رقم (٢٥٨)، الصفحة (٥٠٨)، نهج البلاغة.

وتطمع ـ وأنت متمرّغ في النعيم تمنعُه الضعيف والأرملة ـ أنْ يوجب لك ثواب المتصدّقين! وإنّما المرء مجزيٌّ بما أسلف، وقادمٌ على ما قدّم. والسلام][1].

ينهاه عليه السلام عن الإسراف في الإنفاق، وعدم هدر الأموال، إلّا بقدر الحاجة والضرورة، وأنْ يُمسك منه إلى ما تدعو الحاجة إليه. وحذّره من التمرّغ في النّعيم، ويُحرم أصحاب الحاجة من الفقراء والأرامل من المال.

ومن وصية له عليه السلام، كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات. فقد كان عليه السلام يُقيم عماد الحق، ويشرّع أمثلة العدل في صغير الأمور وكبيرها. يقول: [انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروّعنّ مسلماً، ولا تجتازنَّ عليه كارهاً، ولا تأخذنّ منه أكثر من حقّ الله في ماله... في وصف طويل، ثم ينتهي بالقول: لنقسمها على كتاب الله، وسنّة نبيّه][2].

وفي كتاب آخر لبعض عماله وقد بعثه على الصدقة: [وآمره أنْ لا يَجْبَهَهُم، ولا يَعْضَهَهُم، ولا يرغب عنهم تفضُّلاً بالإمارة عليهم، فإنّهم الإخوانُ في الدين، والأعوانُ على استخراج الحقوق. ـ ويأمره بصون الأمانة ـ ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم يُنزّه نفسه ودينه عنها، فقد أحلَّ بنفسه في الدنيا الذلّ والخزي، وهو في الآخرة أذلّ وأخزى. وإنّ أعظمَ الخيانةِ خيانةُ الأمّة، وأفظعَ الغشّ غشُّ الأئمّة][3].

---

(١) من كتاب له عليه السلام، رقم (٢٥٩)، الصفحة (٥٠٨، ٥٠٩)، نهج البلاغة.

(٢) من وصية له عليه السلام، رقم (٢٦٣)، الصفحة (٥١٢ و٥١٤)، نهج البلاغة.

(٣) من كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٦٤)، الصفحة (٥١٥، ٥١٦)، نهج البلاغة.

لا يجبههم: لا يواجههم بما يكرهونه. وأصلها: الجبهة.

لا يعضههم: لا يبهتهم أو يرميهم بالكذب.

يأمر صاحب الصدقات، أن لا يخاشن الناس أو يقرعهم عند استحصال الصدقات، ولا يحقّر أحد بادعائه التفضّل عليهم بالإمرة. ولا يُكذّب أحداً اعتذر بأمرٍ ما، ولا يتعالى عليهم.

وحذّر من الخيانة والغش، فإنّ الساعي في الصدقة إذا خان، فقد خان الأمّة كلها، وإذا غشّ فقد غشّ الإمام الذي وجّهه عليها، أي على الصدقة.

ومن كتاب بعثه إلى بعض عماله: [فقد بلغني عنك أمرٌ إنْ كنتَ فعلته فقد أسخطت ربّك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك، واعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس][1].

أخزيت أمانتك: أفسدتها وأذللتها.

وجرّدت الأرض: كناية عن أخذه المال وإخراب الضياع، ونسبه للخيانة.

ومن حِكَم أبرويز، قوله لخازن بيت المال: إنّي لا أحتملك على خيانة درهم، ولا أحمدك على حفظ عشرة آلاف ألف درهم، لأنّكَ إنما تحقِن بذلك دمَك، وتعمُر به أمانتك، وأنّك إنْ خنتَ قليلاً خنت كثيراً، فاحترس من خصلتين: من النقصان فيما تأخذ، ومن الزيادة فيما تُعطي، واعلم أنّي لم أجعلك على ذخائر الملك، وعمارة المملكة، والعدّة على العدو، إلّا وأنت أمين عندي من الموضع الذي هي فيه، ومن خواتمها

---

(١) من كتاب له إلى بعض عماله، رقم (٢٧٨)، الصفحة (٥٥٢)، نهج البلاغة.

التي هي عليها، فحقّق ظنّي في اختياري إيّاك أحقّق ظنّك في رجائك لي. ولا تتعوّض بخيرٍ شرّاً، ولا برفعةٍ ضعة، ولا بسلامةٍ ندامة، ولا بأمانةٍ خيانة[1].

ومرّ عمر رضي الله عنه ببناءٍ يُبنى بآجرٍّ جِصّ لبعض عماله فقال: أبت الدراهم إلّا أن تخرج أعناقها. وكان عمر يقول: على كلّ عاملٍ أمينان: الماءُ والطين.

وبنى رجل من عمّال علي عليه السلام بناءً كبيراً فقال: أطلعت الورق رؤوسها، إنّ البناء يصف لك الغنى[2]، أي يدلُّ عليه.

ومن كتاب آخر إلى بعض عماله، فيه تأنيبٌ وتقريع، وتهديد بالمحاسبة على خيانته في أخذه الأموال بغير حق.

يقول عليه السلام: [فلمّا أمكنتك الشدّةُ في خيانة الأمّة أسرعت الكرّة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطاف الذئب الأزلّ، داميةَ المعزى الكسيرة... كيف تُسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلمُ أنّك تأكلُ حراماً وتشربُ حراماً؟... فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنّك إنْ لم تفعل ثمّ أمكنني الله منك لأعذرنَّ إلى الله فيك، ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلّا دخل النار.

ووالله لو أنّ الحسن والحسين، فعلا مثلَ الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا منّي بإرادة، حتى آخذ الحقّ منهما، وأُزيحَ الباطلَ عن مظلمتهما][3].

---

(١) عن ابن أبي الحديد في شرحه للنهج، الجزء (١٦)، الصفحة (٢٨١).
(٢) في باب القصار من كلماته عليه السلام، رقم (٣٥٤)، الصفحة (٧٠٥)، نهج البلاغة.
(٣) من كتاب له إلى بعض عماله، رقم (٢٧٩)، الصفحة (٥٥٣، ٥٥٤)، نهج البلاغة.

أمكنتك الشدة: أي الحملة، كناية عن التمكّن والقدرة.

والذئب الأزلّ: الخفيف الحركة، سريع الوثبة.

إذاً فلا هوادة في قانون العدل وإجرائه، حتى مع الولد أو القريب. والكلّ في ميزانه سواء، وإنّ محاسبة الأقرب وازعٌ للأبعد أن يتّعظ ويعتبر.

وقد دلّت التجارب على أنّ أكثر فساد الحكّام، وأقرب الأسباب في فشلهم، ترك أولادهم وأقربائهم يتحكمون في أمور الدولة بأهوائهم ومن دون رقيب أو محاسبة.

دخل عمر رضي الله عنه على ابنه عبدالله، فوجد عنده لحماً عبيطاً معلقاً، فقال: ما هذا اللحم؟ قال: اشتهيتَ فاشتريت، فقال: أوَ كلّما اشتهيت شيئاً أكلتَه! كفى بالمرء سَرَفاً أنْ أكلَ كلَّ ما اشتهاه.

وخطب يوم استُخلف: أيّها الناس. إنّه ليس فيكم أحدٌ أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحقّ له، ولا أضعف من القوي. حتى آخذ الحقّ منه.

ومن كتابه الذي كتبه إلى مصقلة بن هبيرة الشّيبانيّ، عامله على أردشير خرّة، وهي بلدة من بلاد فرس.

يقول عليه السلام: [بلغني عنكَ أمرٌ إنْ كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيتَ إمامك، إنّك تقسمُ فيءَ المسلمين - الذي حازته رماحُهم وخيولهم، وأُريقت عليه دماؤُهم - في من اعتامك من أعراب قومك. فوالذي فلق الحبّة وبَرأ النَّسَمَة، لئن كان ذلك حقّاً، لتجدنَّ لك عليَّ هواناً، ولتخفَّنَّ عندي ميزاناً، فلا تستهن بحقّ ربّك، ولا تُصلح دنياك بمحق دينك][1].

---

(١) من كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عامله على أردشير خرّة، رقم (٢٨١)، الصفحة (٥٥٦)، نهج البلاغة.

اعتامك: اختارك، وأصل الكلمة: العِيمة، وهو خيار المال. ينهاه عليه السلام أنْ يؤثر أهله وقومه وأقاربه بمال الفيء، ويُحرمه عامّة الناس ويمنعه عنهم، وهو حقٌّ للجميع، والكلُّ فيه سواء.

وهناك مراقبة للعمال من نوعٍ آخر، وهي تشمل حتى أصغر الأمور، وأقلّها أهمية في نظر الآخرين، ولكنّها في ميزان التربية والإصلاح لها شأن كبير عند أمير المؤمنين عليه السلام، وعند دعاة الإصلاح وسفراء العدل.

وما مراقبة عمر رضي الله عنه إلى عاملٍ عنده يبني بناءً، ويخشى أن تكون أمواله من غير حِلٍّ. ويعاتب ولده على شراء اللحم حين اشتهاه، ويعتبر هذا من الإسراف وفي الناس من لا قدرة له على الرغيف أحياناً.

فبهذه الطريقة الصارمة، والحديّة في العدل، يتعامل الحاكم العادل، ليقطع الطريق أمام كلّ خطيئةٍ، وليدفع عن نفسه وأهله الشبهات.

من كتاب أرسله إلى عثمان بن حُنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنّه دُعي إلى وليمة فمضى إليها، يقول فيه عليه السلام: [فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاكَ إلى مأدبةٍ، فأسرعت إليها تُستطابُ لك الألوانُ، وتُنقلُ إليكَ الجِفان، وما ظننتُ أنّك تُجيبُ إلى طعامِ قومٍ عائلُهُم مجفوٌّ، وغنيُّهم مدعوٌّ، فانظر إلى ما تقضَمُهُ من هذا المَقْضَم، فما اشتبه عليكَ علمُهُ فالفِظْهُ، وما أيقنتَ بطيبِ وجوهه فنل منه][1].

---

(١) من كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢٨٣)، الصفحة (٥٥٨، ٥٥٩)، نهج البلاغة.

يأمره أن يترك ما فيه شبهه إلى ما لا شبهة فيه.

ويعظه ليتخيّر الأطعمة ويتعرّف على حلّيتها وطيب وجوهها في طرق كسبها، ويلفظ أو يُعرض عن الطعام إذا اشتبه عليه حلّه من حرمته.

روي عن جويرية بن أسماء، قال: كان بيد عمر بن عبدالعزيز قبل أن يكون خليفة، صنيعة تعرف بالسّهلة، ولها غلّة عظيمة. فلمّا وليَ الخلافة قال لمزاحم مولاه - وكان رجلاً فاضلاً - إنّي عزمت أن أردَّ السهلة إلى بيت المال، فذكّره مزاحم أنّها مصدر عيشه وعيش عياله. فدمعت عيناه وقال: عيالي أكلهم إلى الله.

ثمّ دخل مزاحم على عبدالملك، وهو أحد أولاد عمر، وأخبره بعزم والده على ردّ الصنيعة. فقال له عبدالملك: فما قلتَ له؟ قال: ذكرت له ولده، فقال: بئس الناصح أنت.

ودخل عبدالملك على أبيه، وقال له: على ماذا عزمت؟ قال: أردّ السهلة، قال: فلا تؤخر ذلك، قم الآن، قال: فجعل عمر يرفع يديه ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. قال: نعم يا بني أصلّي الظهر، ثمّ أصعد المنبر فأردّها علانية على رؤوس الناس، فقال له عبدالملك: ومن لك أن تعيش إلى الظهر! ثم مَنْ لك أن تسلَم نيّتك إلى الظهر إنْ عشت إليها! فقام عمر فصعد المنبر، فخطب الناس وردّ السّهلة[1].

عهده إلى مالك الأشتر:

كتبه عليه السلام إليه لمّا ولّاه على مصر وأعمالها، وهو أطولُ عهوده وأجمعها للمحاسن.

---

(١) عن ابن أبي الحديد، في شرحه النهج، الجزء (١٧)، الصفحة (٦٤).

وهو خزين لكثير من المعارف والمناهج التي ترسم الخطوط العامة للحكم والإدارة وشؤون المجتمع بجميع مفاصله وأحواله، ومعالجات لمشاكله، تستند على وحدة الغايات والوسائل. ويؤسّسُ إلى رؤية فلسفية راقية الأصول نظام الحكم وتثبيت دعائم الدولة على أسس صحيحة وسليمة. وتنمُّ عن معرفة كاملة بأحوال الناس والمجتمعات.

لا يمكن لأيّ كلام أن يفي بحق هذا العهد، ويكفيه إشارة وإشادة أنّ الكثير من بنود ولوائح حقوق الإنسان، وعلوم الإجتماع، ونظم المجتمعات المدنية، وغيرها ـ وبعد كل هذه السنين ـ مأخوذٌ منه جلّ المفاهيم والمناهج والطروح. وتكلّم أصحاب الإختصاصات عنه الكثير، وجرت البحوث والدراسات، ورشح الوفير من التقييم والتثمين، وحتى من أعداء الإمام والمخالفين له. وعندما وقع مكتوب العهد في يد معاوية ابن أبي سفيان، بعد مقتل الأشتر ﷺ، طلب إليه عمرو بن العاص أن يمزّقه ويتخلّص منه، فلم يلتفت إليه معاوية، بل لامه واعتبر تنفيذ طلبه خسارة كبيرة، لما في العهد من فوائد جمّة، وأنّه كنزٌ ثمين في أبوابه.

أوّل ما يأمر به ﷺ، تقوى الله وإيثار طاعته. وأنْ يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات، ولا يخالف الحقّ ويعمل به.

ويعرّفه أسباب المهمة التي بُعث إليها بولايته مصر وأعمالها: من جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها وعمارة بلادها. ويدعوه أن يكون أحبّ الذخائر إليه ذخيرة العمل الصالح، وأنْ يملك هواه ويشحَّ بنفسه عمّا لا يحلّ له. ثم يطلب منه الرحمة بالرعية والمحبّة له واللطف بهم من غير تمييز أو أَثَرَة ولا تفضيل لأحدٍ على أحد.

فالناس صنفان: إمّا أخٌ في الدين، أو نظيرٌ في الخلق.

ويأمره: أنْ أنصِف الله، أي قُم بما فرض عليك من واجبات.

وأنصف الناس من نفسك، ومن ولدك وأقربائك وممّن تميل إليهم، وإنْ لم تفعل ذلك فأنت ظالم.

ويُعلمه أنّ قانون الإدارة والحكم: الإجتهاد في رضا العامة من الناس، ويقدّم رضاهم على رضا خاصته، فإنّ سخط الخاصة لا يضرّ عند رضا العامة، أمّا رضا الخاصة لا ينفعه بسخط العامة ولا يدفع عنه تنكرهم، ولا غنى عن العامة ولا بدل عنهم ـ وينصحه أنْ لا يُدخل في مشورته البخيل والجبان والحريص، فالبخل والجبن والحرص، طبائع متفرقة يجمعها سوء الظنّ بكرم الله وفضله.

ونهاه من اتّخاذ بطانة ممّن كانوا عوناً للظلمة، ذلك أنّ الظلم أصبح ملكة ثابتة في أنفسهم، ولا يقدرون الخلّص منه، فهو عندهم كالخلق الغريزيّ لتعودهم عليه.

وأنْ يجعل خاصّته ومعاونيه من أهل الورع والصدق.

[ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءةِ على الإساءة، وألزم كلًّا منهم ما ألزم نفسه](1).

وكان يُقال: قضاءُ حقّ المحسن أدبٌ للمسيء، وعقوبة المسيء جزاءٌ للمحسن.

وأمره بالإحسان إلى الناس وتخفيف المؤونات عليهم، فذلك مدعاة لحسن ظنّه بهم، فإنْ أحسن إليهم انقادوا له، فيحسن ظنه بهم، أمّا الإساءة تسبب العداوة والبغضاء، فيسعون لعصيانه فيسوء ظنّه بهم.

---

(١) من عهده إلى الأشتر، الصفحة (٥٧٦)، نهج البلاغة.

[واعلمْ أنّ الرعيّة طبقاتٌ لا يصلُحُ بعضُها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض][1].

ويعدّ له هذه الطبقات: فمنها جنود الله، ومنها كتّابُ العامّة والخاصة، وقضاةُ العدل، وعمّال الإنصاف والرفق، وأهل الجزية والخراج، والتجار وأهل الصناعات، وذوي الحاجة والمسكنة. وكلًّا له نصيبه من الحقّ.

ثمّ ذكر أعمال وواجبات كل طبقة من هذه الطبقات: فالجند لحماية البلد ودرء المخاطر عنه، والخراج للنقمات ومصاريف الجند، والقضاة والكتّاب والعمّال لما يحكمونه من المعاقد، والتجار للبيع والشراء، وأرباب الصناعات كالحدّاد والبنّاء والنجّار وغيرهم، للقيام بهذه المهن التي لا بدّ منها. ثمّ أهل الحاجة والفقراء، الذين تجب مساعدتهم وتقديم العون إليهم.

وذكر طبقة طبقة، وأوصاه في كلّ صنف ما يليق بحاله، وكأنّه مهّد في هذا التقسيم، كالفهرست لهذه الطبقات، ليذكر له تفاصيل أخرى بخصوصها.

[فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً... ثمّ الْصَقْ بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة... ثمّ تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما... ثم اعرف لكلّ امرئٍ ما أبلى][2].

---

(١) نفس المصدر السابق، الصفحة (٥٧٧).

(٢) من عهد الإمام ﷺ، إلى الأشتر، الصفحة (٥٧٩، ٥٨٠).

وقد اختص هذا الفصل بالوصاة فيما يتعلق بأمراء الجيش، وأنْ يختار الأمين العفيف الناصح. وأنْ يُكرم ذوي الأحساب. ويتفقّد أمر الجند ويرعاهم رعاية الأبوين لولدهما. وأن يقدّر ذوي البلاء منهم وذكر الأمور على حقيقتها، فلا يعظّم بلاء ذوي الشرف لأجل شرفهم، ولا يحقّر بلاء ذوي الضّعَة لضعة أنسابهم.

ثم يأمره أنْ يُحسن الاختيار للحكم والقضاء، فيختار من أفضل الناس، ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة، أي أنّه إذا أخطأ رجع وأناب، ولا تشفق نفسه، أي يخاف، ولا يكتفي بأدنى فهم، بل يستقصي ويبحث، وأنْ لا يتضجّر من مراجعة الخصم، فإنّ القلق والضجر والتبرّم أقبح ما يكون من القضاة. وأن يكون صارماً، ولا يستخفّه المدح والإطراء والتحريض.

وأمره أنْ يتعهد أحكامه، ويُفرض العطاء الواسع ليملأ عينه، ويتعفّف من الرشا. ويكون قريباً من مكان القضاء، وكثير الاختصاص به.

ومن وصاية عمر في القضاء: البيّنة العادلة أو اليمين القاطعة للخصمين، وتقريب الضعيف حتى يشتدّ قلبه وينبسط لسانه، وتعهد الغريب حتى يأخذ حقّه، والمساواة بين الخصوم في اللحظ واللفظ، والصلح بين الناس ما لم يستبن فصل القضاء. [وإنّ أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد](1).

بعد أن انتهى من أمر القضاة، أخذ في شأن العمّال، وهم عمّال الصدقات والوقوف والمصالح وغيرها. أنْ يكون تعيينهم بعد اختبارهم،

---

(1) من عهده لمالك الأشتر، الصفحة (٥٨٠).

وعلى أساس الكفاءة والاستحقاق، لا أثَرة أو محاباة، واعتبرهما، أي الأَثرة والمحاباة جِماعٌ من شعب الجور والخيانة. وجماع الجور والخيانة، أي يجمعهما، كقول النبي ﷺ: «الخمر جِماع الإثم»[1]. وشُعب: وهي الأقسام والأجزاء. والمعنى أنّه إذا لم يكن اختياره بلحاظ الاستحقاق ففيه جور على المستحق، وأمّا الخيانة، فلأنّ الأمانة توجب اختيار الأكفأ، فعند اختيار غيره فقد خان من ائتمنه. وليكن اختياره لنوّابه وعمّاله على النواحي والتخوم من أهل البيوتات الصالحة، وذوي الأخلاق الكريمة، والذين ينظرون في عواقب الأمور، وأنْ يعطيهم ما يكفيهم من الأرزاق، ليكون ذلك حجّة عليهم لو خانوا، وأمره أنْ يتابع أحوالهم ويراقب أعمالهم، ويبعث عليهم الرقباء من أهل الصدق والوفاء، فذلك حثٌّ لهم على الإخلاص في العمل، والرفق بالناس.

وأمره بمحاسبة من تثبت عدم أمانته، والاقتصاص منه.

ولمّا فرغ من العمال وشؤونهم، توجّه إلى الخراج وأمره.

يقول عليه السلام: [وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله][2].

أنْ يكون اهتمامه ونظره في عمارة الأرض واستصلاحها، أبلغ من نظره في جلب الخراج، لأنّ الخراج لا يُدرَك إلّا بالعمارة، ومن دونها خراب البلاد والعباد.

وفي حال حدوث الطوارىء، مثل انقطاع الماء أو إصابة الغلّة بالآفات كالجراد أو البرد أو الغرق وغيرها. أمره أنْ يخفّف عنهم ولا

---

(١) أخرجه القضاعي في مسنده، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٦٠)، والزيلعي في نصب الراية (٢/ ٣٦).

(٢) من عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٨٣).

يُثقل في الطلب، فذلك ذخرٌ سيعودون به عند تحسن الأحوال وزوال الأثقال.

[وإنّما يؤتى خرابُ الأرض، من إعواز أهلها][1]. أي فقرهم. وسبب ذلك طمع الولاة وجمع الأموال لهم ولمن ولّاهم، يظنّون طول البقاء وينسون المعاد، أو يتوقعون العزل فينتهزون الفرص بأخذ الأموال، ويذرون إعمار الأرض.

وبعد الخراج أخذ بالنظر في حال الكتّاب، وهم الذين يتولون المكاتبات بينه وبين عمّاله وأمرائه، ويقومون بأمور الديوان والعقود والمعاهدات وغيرها.

أمره أنْ يكون اختيارهم بالاعتماد على التجربة وأصحابها، وأهل الأمانة وأحسنهم أثراً، وليس على الظن وحسن النظر، أو الثقة والميل الخاص للأشخاص. ويختار منهم لمكاتباته وأسراره، أجمعهم للأخلاق الحميدة، وممّن لا يقصّر في عمله بإطلاعه على ما يرد إليه من مكاتبات، ولا في إصدار أجوبتها، وأنْ يكون حذراً ونبيهاً يتابع مكاتباته بدقّة تامّة، خبيراً بإجراء العهود وإحكام العقود.

ويعرف قدر نفسه، فالجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. وأنْ يقسّم بينهم ضروب الكتابة وفنونها، فيتعود كلّ واحدٍ على الفن الذي عمل فيه، ككتابة العقود وإرسال الرسائل وأجوبة العمال، وغيرها.

ثمّ انتقل بالكلام من الكتّاب إلى التجّار وأصحاب الصناعات. واستوصاه بهم خيراً، وطلبَ منه أنْ يوصي عمّاله وأمرائه أنْ يتعاملوا معهم بالخير أيضاً.

---

(١) من نفس العهد، الصفحة (٥٨٥).

وقسّم ﷺ الموصي بهم، وهم التجار والصنّاع. قسمين للتجار وهما: الأول، المقيم، والثاني، المضطرب بماله، وهو المسافر الذي يضرب في الأرض سعياً في تجارته.

وقسم الأرباب الصناعات وأنّهم، أي التجار والصنّاع مسالمون فلا تُخشى منهم داهية أو عصياناً.

وأعلمه أنّ في كثير من التجار، بعض البخل والشح واحتكار الأقوات وزيادة في الأسعار. وطلب منه محاربة الاحتكار ومنعه، وكذلك مراقبة الأسعار، وأنْ يكون البيع بيعاً سمحاً، وفي موازين العدل وبأسعارٍ لا تُجحفُ بالبائع والمشتري.

وانتقل إلى الطبقة السفلى، من الفقراء والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى. أهل البؤسى: شديدي الفقر. والزمنى: ذوي العاهات التي تمنعهم من الاكتساب والعمل. وأمره أنْ يكفيهم من بيت المال، ويُعطى الأدنى منهم والأقصى. ولا تهمل التافه من أمور هذه الطبقة، لقيامك بالأمور المهمّة والكثيرة، وأنّك لا تُعذر بذلك.

[وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمه العيون (أي تزدريه)، وتحقره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك (أي اجعل ممن تثق بأمانتهم وتقواهم)، من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثمّ اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه (بعمل الواجب معهم ومساعدتهم)، فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم، وكلٌّ فأعذر إلى الله في تأدية حقّه (أي جميع الناس تجب عليك رعايتهم وأنت مسؤول أمام الله عنهم)، وتعهّد أهل اليُتم، وذوي الرقّة في السّنّ (أي المتقدمون في العمر)، ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه (أي يتعفّف)][١].

---

(١) من عهده إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٨٨).

كان بعض أهل العدل يجلس بنفسه للمظالم، ولا يعتمد على أحدٍ غيره في هذا الأمر. فيستمع شكواهم ويقوم بإجابة مطالبهم، ولمّا أُصيب بالصمم وأصبح غير قادر على الاستماع لهم. نادى مناديه: يقول لكم الحاكم أني إنْ أُصبت بالصمم، فلم أُصب في بصري، من عنده ظلامة فليلبس ثوباً أحمر. وجلس لهم في شرفة ليرى أصحاب الظلامات، فيقوم بردّها.

وأمره أنْ يتفرّغ بنفسه لذوي الحاجات والمتظلّمين، ويُخصّص لهم وقتاً معيّناً للنظر في حوائجهم، وأنْ يمنع عنهم حرسه وأعوانه، فيتكلّم من يريد التكلّم من دون تردد أو خوف. ويحتمل جاهلهم والعاجز عن النطق، ولا يضجر من ذلك، ومن دون ضيق أو استنكاف أو تكبّر.

وبيّن له أنْ لا بدّ من جلوسه لهم لأمور أخرى: منها أنّ كثير من حاجيات الناس تضيق لها صدور أعوانه وحاشيته، ومنهم يحبون المماطلة في قضائها والممانعة، إمّا استعلاءً أو جلباً للمنفعة.

[وامْضِ لكلِّ يومٍ عملَهُ فإنّ لكلِّ يومٍ ما فيه][1]. أي لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فذلك يُتعبك، ويُضجر الناس منك.

وبعد أنْ انتهى من وصيته بأمور الناس، وواجباته تجاه الرعية، أخذ يوصيه بأداء ما فُرض عليه من العبادات.

وجعل بعض وقته لله سبحانه وتعالى: [وإن كانت كلّها لله][2].

معتبراً خدمة الناس، وأداء الأعمال والأمانة كالعبادة بل هي

(١) من عهد الإمام ﷺ، الصفحة (٥٨٩).

(٢) من نفس العهد، الصفحة (٥٨٩).

العبادة الحقيقية، وهي أساس فلسفة الدين، ومغزى التعبد والإيمان. «إنّما الدين المعاملة».

وأمره أن يؤدي واجبه تجاه الله سبحانه [كاملاً غير مثلوم][1]. أي لا يمنعك سلطانك ومشاغلك من أداء الفرائض على وجهها الصحيح والأكمل، وإنْ أتعبك هذا.

وإنّما العبادة والمواظبة عليها والقيام بها وبشروطها، تُقرّب الحاكم من الله وتُصفي باله وضميره وتُنشط عنده ملكة العدل والإنصاف وتدفعه للإخلاص في عمله.

ثمّ ينتقل إلى الاحتجاب، ويحذره من عدم لقاء الرعية والاستماع إليهم، فذلك يمنع من وصول الأخبار إليه فيعمى عليه أحوال عمله. فلِمَ الاحتجاب، وأنَّ أكثر ما يُسألُ منه، ما لا مؤونة عليه في ماله، مثل إنصاف الخصوم أو ردّ المظالم!

قال أبو العتاهية:

متى يُفلحُ الغادي إليك لحاجةٍ
ونصفكَ محجوبٌ، ونصفكَ نائمُ

[فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضّيق، وقلّةُ علمٍ بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظُمُ الصغير، ويَقبحُ الحسن، ويَحسُنُ القبيح، ويُشابُ الحقّ بالباطل][2].

---

(١) من عهده ﷺ، إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٩٠).

(٢) من عهده ﷺ إلى مالك الأشتر، الصفحة (٥٩٠).

[ثمّ إنّ للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلّة إنصاف في معاملة][1].

يشدّد على منعه لبطانته وخاصته من ظلم الناس والتعدّي عليهم، بالأخذ على أيديهم ومنعهم من الاستئثار والتطاول، ومحاسبتهم عند الزلّة أو العدوان.

[ولا تقْطعنَّ لأحدٍ من حاشيتك وحامتك قطيعة][2].

منعه من منح خاصته وأقاربه الأراضي والإقطاعات، لمجرد صلة القرابة أو الإختصاص، فتكون منفعة ذلك لهم دونه، ووزره واقعٌ عليه، والعيب والذم لاحق به في الدنيا والآخرة.

[والزم الحقَّ من لزمه من القريب والبعيد][3].

ويقول: [وإنْ ظنّت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك][4].

يقول له: لو اتهمك أحد من الرعية بالجور، فاكشف ما لديك من أعذار وما عندك ظاهراً غير مستور تُبعد به ظنونهم، وتُقيم لك العذر.

وطلب منه قبول الصلح إذا دعاه إليه عدو، ففي الصلح يرتاح الجند، وتأمن البلاد، مع الحذر من العدو بعد الصلح، فلربّما قاربك ليطلب غفلتك، ولا تركن إلى حسن ظنّك به. وأمره بالوفاء بالعهود، ولتكن نفسك جُنّة، أي لو ذهبت نفسك فلا تغدر. فإنّ عاقبة الغدر وبيلة.

ولا تمكر أو تخدع عدوك وأنت تعاهده.

---

(١) (٢) (٣) (٤) من العهد نفسه، الصفحة (٥٩١).

[فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه][1].

الإدغال: الإفساد، والمدالسة: الخيانة.

[ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل (أي تتأوّل فيه)، ولا تعوّلنّ على لحن القول بعد التأكد والتّوثقة (نهاه عن نقض العقد معوّلاً على التأويل)، ولا يدعونّك ضيقُ أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق][2].

فتخاف أنْ تتوجّب عليه المطالبة من الله بحقه في الوفاء لو غدرت به.

[إياك والدمّاء وسفكها بغير حلّها، فإنّه ليس شيءٌ أدعى لنقمةٍ، ولا أعظم لتبعةٍ، ولا أحرى بزوال نعمةٍ، وانقطاع مدّةٍ، من سفك الدّماء بغير حقّها][3].

ورد في الخبر المرفوع، أنّ أوّل ما يقضي الله به يوم القيامة بين العباد أمر الدماء.

إنّ جميع الشرائع السماوية، تنهى عن سفك الدماء والعدوان، ولا يسيغه عقل أو نظام أو قانون، وليس أدعى إلى حلول النقم، وزوال النعم، وانتقال الدول من سفك الدم الحرام.

ونهاهُ عليه السلام من قتل العمد، ففيه قَوَدَ البَدَن، أي القتل مقابل القتل.

ثم ينتقل إلى وصايا في الأخلاق والمعاملة منها:

[وإيّاك والإعجاب بنفسك... وحبَّ الإطراء... وإيّاك والمنَّ

(١) (٢) من العهد الذي كتبه إلى الأشتر، الصفحة (٥٩٣).

(٣) من العهد، الصفحة (٥٩٣).

على رعيتك بإحسانك... أو أنْ تعدهم فتُتْبع موعدك بخُلفك... وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها... وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوة... أملك حميّة أنفك، وسورة حدّك، وسطوة يدك، وغرب لسانك][1].

فالعُجب في الإنسان يمحق الإحسان بما يتبعه من الغرور والتعالي. وفي الحديث: «لا وحشة أشدُّ من العُجب»[2] ونهاه عن حبّ الإطراء والاستماع إليه. وحذّر من المنّ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[3]. وكان يُقال: المنُّ محبّة للنفس، مفسدة للصّنع. ونهاه عن الخُلف بالوعد، فهو يوجب المقت. ونهاه عن العجلة في الأمور قبل التثبّت. وحذّره من الاستئثار بالمال أو الغنائم وإشراك الناس فيه بمثل ماله ولأولاده. ونهاه عن الغضب، وأنْ لا يحكم بحكم وهو غضبان، حتى يهدأ ويسكن غضبه. ونهاه عن إطلاق لسانه من سباب ونحوه، وإطلاق اللسان عند الغضب يزيده، والسكوت يُطفئه.

والاحتراس من كلّ ذلك بكفّ البادرة وتأخير السطوة. وأكّد عليه أن يجتهد لنفسه في اتّباع ما عهد إليه من عهد، واستوثق به الحجّة عليه، لكيلا تكون له علّة عند تسرّع نفسه إلى هواها.

ويختم عهده بالتضرّع إلى الله بالتوفيق سبحانه. وإقامة العذر الواضح إليه وإلى خلقه (أي الاجتهاد وبذل الوسع من العمل والطاعة

---

(١) من العهد نفسه، الصفحة (٥٩٤، ٥٩٥).

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٠)، والترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢/ ٨٨).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٦٤).

وإقامة العدل. ومن بذل جهده فقد أعذر) مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة (أي زيادتها أضعافاً)، وأن يختم لنا بالسّعادة والشهادة، وإنّا إليه راغبون.

ولم تحتوي وثيقة بمثل محتوى هذا العهد الكبير.

لما فيه من المناهج والوصايا والمعارف، وخصوصاً فيما يتعلق بنظام الحكم وإدارة الدولة وتنظيم المجتمع، وحقوق الإنسان، وتقسيم الناس وطبقاتهم، وتبيان حقوقهم وواجباتهم.

وتشريع القوانين وإعداد المراسيم، وتصريف الأعمال وتهيئة العوامل والأسباب لبناء الدولة والمجتمع والإنسان، وعلى أعلى درجات الوعي والإدراك والمعرفة لحقيقة النفس البشرية وعلمٍ بكنه الإنسان وحاجاته، ليأخذ مكانه الطبيعي في الحياة بتحقيق كرامته وإنسانيته.

وما أحوج مجتمعات اليوم لوعي تشريعات وتعاليم هذا العهد السامي والأخذ بها، فهي قبسٌ من نور الكلام الإلهي، وفرعٌ من دوحة العلم النّبويّ.

في الحقّ سواء:

من كتاب له ﷺ إلى صاحب الجند في حُلوان: [فإنّ الوالي إذا اختلف هواه، منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمرُ الناس عندك في الحق سواء، فإنّه ليس في الجور عوضٌ من العدل، فاجتنب ما تُنكر أمثاله... ومن الحقّ عليك حفظُ نفسك، والإحتساب على الرعيّة بجهدك][1].

---

(١) من كتاب له ﷺ، إلى الأسود بن قطيبة، رقم (٢٩٧)، الصفحة (٦٠١، ٦٠٢)، نهج البلاغة.

واختلاف الهوى: جريانه مع غرض النفس، وهذا يمنع كثيراً من العدل، لأنّ الوالي أو الحاكم إذا لم يتساوى الخصمان عنده، جار وظلم. ولا عوض في الجور من العدل، وعكسه فكل العوض في العدل من الجور. فاجتنب الجور الذي تنكره لو صدر من غيرك.

والاحتساب على الرعية: مراقبة أعمالهم وإصلاح الفاسد منها، وتقييم الصالح.

ومن كتاب له إلى قُثم بن العباس، وهو عامله على مكة، يوصيه كيف يعمل فيما اجتمع عنده من المال، وطرق صرفه: [فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع الفاقة والخلّات، وما فضل عن ذلك، فاحمله إلينا لنقْسمه في من قِبَلنا][1].

قدّم عليه السلام، ذوي العيال والمجاعة في صرف الأموال، لسدّ حاجات هؤلاء وتلبية استحقاقهم، ورفع الفاقة عنهم، فالإنسان لا يكون أكثر شغباً وخلافاً من الجائع الذي لا يجد ما يسدّ جوعه ويرفع فاقته، فهو عندما يعطيهم إنّما يُصيب مواقع الاستقرار والأمان بعدم شغبهم على الدولة وإرباكها. [ولا تحجبنّ ذا حاجة عن لقائك بها، فإنّها إنْ ذِيدتْ عن أبوابك في أوّل وِرْدها لم تُحمد فيما بعد على قضائها][2].

ذيدت: دفعت. وفي التأخّر في إنجاز الحاجات وتلبيتها ما يوجب الذم والتذمّر.

ذُكر أنّ أبو عبّاد ثابت بن يحيى، وهو كاتب المأمون إذا سُئل

---

(١) (٢) من كتاب له عليه السلام، إلى قثم بن العباس، رقم (٣٠٥)، الصفحة (٦١٣، ٦١٤)، نهج البلاغة.

حاجة، يشتم السائل، ويبكّته ويُخجله، ثمّ يأمر له بقضاء حاجته. حتى قال فيه الشاعر:

لعن الله أبا عبّاد لعناً يتوالى
يوسع السائل شتماً ثمّ يعطيه السؤالا

وقال فيه شاعر آخر:

قل للخليفة يابن عمّ محمدٍ قيّد وزيرك إنّه ركّالُ
فلسوطه بين الرؤوس مسالكٌ ولرجله بين الصدور مجالُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبديّ، وقد ولّاه بعض النواحي، فخانه في أمانته: [تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقّاً لجمل أهلك وشسع نعلك خيرٌ منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أنْ يُعلى له قدر، أو يُشرك في أمانه، أو يؤمن على جباية][1].

وقد بلغ أمير المؤمنين عليه السلام، أنّ المنذر كان يقتطع الأموال والمنافع ويُعطيها أقاربه وأبناء عشيرته دون باقي الناس فعنّفه وزجره، وذكره بالجمل، فإنّ العرب تضرب المثل في الهوان بالجمل. وأما شسع النعل فضرب المثل في الاستهانة به مشهور لوطئه بالأقدام ـ وهذا شأن من يخون الأمانة ـ ولمّا كانت البلاد والعباد أمانه، فمن يتولّاه الولاية فقد كُلّف أمانةً. والجباية: استجلاب الخراج.

وكان من بعض ما يكتب إلى الأمراء والعمال لمّا استُخلف: أما بعد، فإنّما أُهلك من كان قبلكم أنّهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه.

---

(١) من كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٣٠٩)، الصفحة (٦١٨)، نهج البلاغة.

أي حجبوا عن الناس حقوقهم، فاضطر الناس لشرائها منهم بالرشوة، وهذا هو قصده «فاشتروه».

وكلّفوهم بإتيان الباطل فأتوه وصار قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء،

وممن الأقوال الحكميّة: احذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامّة الناس، واحذر كلّ عمل يُعمل في السرّ، ويُستحيا منه في العلانية، واحذر كلّ عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه.

وفي المثل المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام: إيّاك وما يُعتذرُ منه.

نماذج من الحِكَم

تزخر حِكَم أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه والقصار من كلماته، بأبوابٍ عديدةٍ وأغراضٍ شتّى من الأمور الحكمية والمواضيع التربوية والمفاهيم التي تستند على فلسفة أخلاقية تؤسّسُ إلى غرس الفضائل في النفوس، وتحارب الفساد والرذيلة، وتعمل على استئصالها من الحياة فكراً وعملاً.

وسوف نتناول منها ما يخصُّ موضوع كتابنا، ونترك باقي الأغراض لحاجة كل غرض فيها إلى بحوث منفردة. ولتجنب التكرار وإعادة بعض ما تناولناه في الخطب والرسائل والكتب، اعتمدنا اختصار الأمثلة، وأخذ البعض منها، لتتم الفائدة في تتبّع كتاب نهج البلاغة من أوّله إلى آخره فيما له علاقة بثقافة النزاهة، ومحاربة الفساد ومناهج الإصلاح.

الطمع:

يقول عليه السلام: [أزرى بنفسه من استشعر الطمع][1].

أزرى بنفسه: أي حقرها، أو قصّر بها.

واستشعر: جعله شعاراً، أي لازمه وتخلّق به.

---

(١) في المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٢)، الصفحة (٦٢٧)، نهج البلاغة.

وفي الحديث المرفوع: الطمع الفقر الحاضر[1].

ومن الأقوال في الطمع: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع.

وقال الشاعر:

رأيت مخيلة فطمِعت فيها وفي الطّمع المذلّةُ للرقابِ

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، يصف فيه قلب الإنسان وأنّ فيه موادّ من الحِكمة وأضداداً من خلافها، فإذا ظهر له الرجاء أذلّه الطمع، وإنْ هاج به الطمع أهلكه الحرص[2].

أي أن قلب الإنسان يعْتوره المتضادّات، فمنها الحكمة وما ينافي الحكمة، كالكرم وينافي الكرم البخل، والأمانة وينافيها الخيانة، وهكذا، والمرء إذا اشتدّ به الرجاء وطول الأمل اعتوره الطمع.

والفرق بين الرجاء والطمع: أنّ الرجاء توقّع نفعٍ ممّن يُرتجى منه ذلك، والطمع نفس التوقع ولكن ممّن يُستبعد منه النفع. والطمع يتبع الرجاء، والحرص يتبعه. لذا قال: وإنْ هاج به الطمع أهلكه الحرص.

وقال أيضاً: [الطمعُ رقٌّ مؤبّد][3].

وجميلٌ قول الشاعر:

تعفّف وعشْ حرّاً ولا تكُ طامعاً فما قطّع الأعناق إلّا المطامعُ

وقال عليه السلام أيضاً: [أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع][4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٢٨)، والطبري في الأوسط (٧٧٥٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٠٦٩).

(٢) جاءت في الحكمة رقم (١٠٩)، الصفحة (٦٤٩)، من نهج البلاغة.

(٣) في القصار من كلماته عليه السلام، رقم (١٨٠)، الصفحة (٦٦٧)، نهج البلاغة.

(٤) في القصار من كلماته عليه السلام، رقم (٢٢٠)، الصفحة (٦٧٤)، نهج البلاغة.

وقال: [الطامعُ في وثاق الذّل][1].

وقال: [إنّ الطمع موردٌ غير مُصدر، وضامنٌ غير وفي][2].

أي أنّ من ورد الطمع هلك، ولم يرجع.

الولايات مضامير الرجال[3]

وقد جرى الحديث عن ما يُماثله فيما مضى، والمضامير جمع مضمار، وهو المكان أو المدة التي تضمَّر بها الخيول، وذلك بتقديم العلف والماء لها، ثمّ يُمنع عنها إلّا القليل منه، وتجري في الميدان، يُفعل بها هكذا لمرات لتهزل وتجهز للسباق. فمثّل الولاية أو الإمارة بهذا، فمنهم من يظهر منه الأخلاق الحميدة والصفات الرشيدة وذلك من يفوز في الاختبار. ومنهم من يظهر فيه الأخلاق الذميمة بخلاف الحالة الأولى. ومن أقوال الشعراء في الولاية والإمارة، قول أحدهم:

يابنَ وَهْبٍ والمرءُ في دولة السلـ ... ـطانِ أعمى ما دام يُدعى أميرا

فإذا زالت الولايةُ عنه ... واستوى بالرجال عادَ بصيرا

وقد دلّت الأحداث على أنّ الولايات كذلك، يُمتحن بها الرجال ويُختبرون، وتتبيّن عندها المعادن.

فمنهم من يدخل في أمر ليس منه، فتفرزه الحوادث، وتزدريه الأعين، حينها يكون مصداقاً للمثل القائل: حنّ قدح ليس منها[4].

---

(١) في القصار من كلماته عليه السلام، رقم (٢٢٧)، الصفحة (٦٧٥)، نهج البلاغة.

(٢) في القصار من كلماته عليه السلام، رقم (٢٧٧)، الصفحة (٦٩٠)، نهج البلاغة.

(٣) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم (٤٣٥)، الصفحة (٧٢٤)، نهج البلاغة.

(٤) يُنسب هذا المثل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويعني: صوت السهم مخالفٌ للسهام، وعند الرمي يخالف صوته أصواتها. يُضرب لمن يدعي نفسه لقومٍ وهو ليس منهم.

وفيهم من يعوجّ غرضه فيميل عن الاستقامة لطلبه، كما يقول المثل: فدع عنك من مالت به الرمية.

وآخر يُقادُ كالجمل المخشوش، حتى يُجبر على فعل الشيء وهو لا يريده.

والبعض ينعش بها وهو الذليل.

وقليل يصدق الظّنّ به، ويجتاز الاختبار، وعندها تعرف الرجال وتمتاز.

خاتمة

وصلت بفضل الله إلى نهاية ما استخلصته في نهج البلاغة من بدائع أمير المؤمنين ﷺ، لما له علاقة في ثقافة النزاهة ومحاربة الفساد، والمناهج الإصلاحية والمباني التربوية الهادفة إلى بناء المجتمع على نظم العدل والخير والصلاح، والارتقاء بالإنسان إلى مرافىء الكرامة والرفعة. وما رشح من كلماته وخطبه ورسائله ﷺ من توقيعات وتوجيهات بنّاءة، تستوعب بنظرتها الشاملة وروحيتها النبيلة الصافية كلّ الوجود، دليل هداية ورشاد، ومراتع ريع ونماء، وأعلام معرفة وبيان. يستطيع أن ينعم بها ويستفيد منها كلّ إنسان وبصرف النظر عن جنسه أو نوعه، وأينما كان.

إنّ النظرة الإصلاحيّة في فلسفة مدرسة الإمام ﷺ، نظرة شمولية تزخر بالمفاهيم المتطورة والمتجدّدة. وهي تصلح لكلّ زمان ويعايش معها كلّ فكر وأيّ إنسان.

وهذه الروح المتفتحة والشفافة تختزل الحواجز وتتعدّى الفوارق وتتآلف مع الجوهر والأصل.

فما دام الإنسان وقد خلقه الله سبحانه من عنصر واحد، فهو في مدارك هذه المدرسة على سواء وتماثل.

إنسانيّته مصانة وحقوقه محفوظة، وله الحقّ في تحصيل حقوقه ما دام لا يخلّ بواجباته.

ولرحابة تلك المدرسة وأصالتها، فهي تؤدّي دورها الفاعل في النفس البشرية مهما اختلفت الألوان والظروف والأماكن «إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق»[1].

إنّ التأكيد الحاصل في موارد كلام أمير المؤمنين عليه السلام على تعاليم الإصلاح ونشر ثقافته، يوضح أنّ التحدي الكبير في عمل المصلحين والساعين إلى بناء المجتمعات وتأسيس الدول، هو الفساد الإداري وكيفية محاربته ومعرفة سبل استئصاله أو انحساره. وأنّ التحدي الأكبر هو التحمّل والصبر والاستعداد للمواجهة والقدرة على المداومة في كفاح هذه الظاهرة، وعدم الإهمال أو المساومة.

فمع تغليب المادة وكثرة الاحتياج إليها، والإزدياد الانفجاري في المخترعات ووسائل الترفيه وأمور الحياة عموماً، كان من نتائجها نمو هذه الظاهرة وتغلغلها في النفوس. ما يجعل الحاجة أكبر لجهود الإصلاح وإزالة آثارها.

وإذا ما تمكّنت هذه الظاهرة من أيّ مجتمع، فإنّها ستكون بمثابة المعول الذي يهدم أركانه حتى يأتي على خرابه.

إنّ ما قدمناه من بحث أو دراسة في ثقافة النزاهة ومحاربة الفساد في كتابنا، نرجو أنْ يكون علامة في أوّل الطريق يمكن أنْ تؤدّي دورها وتأتي أُكلها، ما دمنا معتمدين في كلّ خطوة وهمسة على التسديد الإلهي، ورجاءنا في الله سبحانه وتعالى، ولا رجاء فيمن سواه، ليثبّت خطانا ويهدي سبلنا، ويُنجح طلبتنا. وأن يجعل كل عمل نعمله خالصاً لوجهه نرجو فيه رضاه ومنّه.

---

(١) جاءت في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، الذي كتبه إلى مالك الأشتر عندما ولّاه على مصر، الصفحة (٥٧٢)، نهج البلاغة.

ولما أخذنا على أنفسنا أنْ نجتهد في البحث عن كنوز نهج البلاغة وعلومه، ونرجع إلى سنن غرضنا في دراسته واتّباعه، فإلى دراسة قادمة أخرى فيه إن شاء الله، نصرةً للعلم والبحث والمعرفة.



المحتويات





ثقافة النزاهة في نهج البلاغة







الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com